

# شعنا اهل الأندلس

{المهاجرون الأندلسيون}

تأليف: مرثديس غارثيا أرينال  
ترجمة: محمد فكرى عبد السمیع  
مراجعة وتقديم: جمال عبد الرحمن

1085

لكي تفهم وضع الكتاب الذي تقدم له ينبغي أن نضع في الاعتبار أنه يشكل جزءاً من سلسلة تضم ثلاثة كتب: الكتابان الآخران هما "العلوم والتبادل الثقافي في الأندلس" لماريبل فييرو، "الأندلس والأندلسيون" لمانويلا مارين.

يقدم هذا الكتاب رؤية أخرى للأندلس؛ إذ ترى المؤلفة أن الحديث عن تقدم الأندلس وتعايش أبنائه في سلام لا يعدو كونه "أسطورة" من وحي خيال المؤلفين. ليس صحيحاً - من وجهة نظر المؤلفة - أن المسيحيين واليهود كانوا راضين بالعيش تحت الحكم الإسلامي "المتسامح"، بل ترى أن أبناء الديانتين تعرضوا لتمييز، إن لم يكن اضطهاداً. وتهدف ترجمته إلى تعرف القارئ العربي على وجهة نظر أخرى في موضوع نراه من المسلمات بينما يدور الجدل بشأنه في إسبانيا.

الكتاب - رغم صغر حجمه - يقدم معلومات أساسية لمن يريد البدء في دراسة تاريخ الإسلام في الأندلس بعد سقوط غرناطة، أما الذي يريد التعمق في الدراسة فتحيله إلى كتب أخرى للمؤلفة ولغيرها من الباحثين صدرت ترجماتها عن المشروع القومي للترجمة.

شتات أهل الأندلس

( المهاجرون الأندلسيون )

المشروع القومي للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ١٠٨٥
- شتات أهل الأندلس (المهاجرون الأندلسيون)
- مرثيديس غارثيا أرينال
- محمود فكرى
- جمال عبد الرحمن
- الطبعة الأولى ٢٠٠٦

هذه ترجمة كتاب:

**La diáspora de los andalusíes**

**Por: Mercedes García-Arenal**

---

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة.

شارع الجبلاية بالأوبرا . الجزيرة . القاهرة ت: ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤

EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo

TEL: 7352396 Fax: 7358084

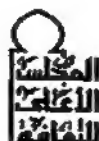
# شتات أهل الأندلس

## ( المهاجرون الأندلسيون )

تأليف : مرثيديس غارثيا أرينال

ترجمة : محمود فكرى عبد السميع

مراجعة وتقديم: جمال عبد الرحمن



بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

أرينال مرثيديس غارقيا

شقات أهل الأندلس أو المهاجرون الأندلسيون

تأليف : مرثيديس غارقيا أرينال ، ترجمة محمود فكرى عبد السميع ،

مراجعة وتقديم : جمال عبد الرحمن

ط ١ - القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٦

٢٣٢ ص ، ٢٠ سم (المشروع القومى للترجمة) ،

٩٥٣،٠٧١

١ - الأندلس - تاريخ

١ - فكرى ، محمود (مترجم)

رقم الإيداع ٢٤٨٢٧ / ٢٠٠٦

التراقيم الدولى : 1-142-437-977-I.S.B.N

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة.

## المحتويات

7	تقديم المراجع .....
17	تصدير الناشر الإشباني .....
19	مقدمة .....
33	١- المستعربون .....
34	مملكة أستورياس وليون .....
46	طليلة .....
47	المغرب .....
51	٢- اليهود .....
52	قشتالة .....
61	أراغون .....
69	٣- المدجنون .....
74	مملكة قشتالة .....

103	..... غرناطة
107	..... مملكة أراغون
111	..... فالنسيا
115	..... ٤- الموريسكيون
123	..... تعليم الإنجيل والتنصير
132	..... القمع والطرْد
137	..... مقاومة طمس الهوية
149	..... ٥- الموريسكيون بعد الطرد
157	..... المغرب
168	..... الجزائر
177	..... تونس
185	..... تعليق على المراجع
217	..... قائمة المراجع



## تقديم المراجع

لدولة الأندلس مكانة عظيمة فى نفوس أبناء الحضارة العربية الإسلامية ، فهى ترمز إلى عصر ازدهار حضارتنا وتفوقها ، وإلى موقعنا بوصفنا أصحاب فضل على أوروبا وغيرها ، أو - على الأقل - بوصفنا مساهمين بشكل أو بآخر فى تقدم الإنسانية.

البعض يتحدث عن "الفردوس المفقود" ، والبعض الآخر يتذكر ضياع الأندلس كلما سقطت قلعة عربية. يتحدث المؤرخون العرب - وكثير من الأوروبيين - عن دولة الأندلس بوصفها نموذجًا للتقدم والرقى والتعايش بين مواطنين يدينون بأديان مختلفة ، كل ذلك فى انسجام تام.

لكن الكتاب الذى بين أيدينا يقدم رؤية أخرى للأندلس ، إذ ترى المؤلفة أن الحديث عن تقدم الأندلس وتعايش أبنائه فى سلام لا يعدو كونه "أسطورة" من وحي خيال المؤلفين. ليس صحيحًا - من وجهة نظر المؤلفة - أن المسيحيين واليهود كانوا راضين بالعيش تحت الحكم الإسلامى "المتسامح" ، بل ترى أن أبناء الديانتين تعرضوا لتمييز ، إن لم يكن اضطهادًا.

لكي نفهم وضع الكتاب الذي نقدم له ينبغي أن نضع في الاعتبار أنه يشكل جزءاً من سلسلة تضم ثلاثة كتب : الكتابان الآخران هما "العلوم والتبادل الثقافي في الأندلس" لماريبيول فييرو، و"الأندلس والأندلسيون" لمانويلا مارين . وقد نبهت المؤلفة إلى أن هذا الكتاب لا ينبغي أن يقرأ بمعزل عن الكتابين الآخرين (هل نطمح في أن نتسع إصدارات المجلس الأعلى للثقافة لنشر الكتابين الآخرين؟)

والى أن يرى المجلس رأيه في ترجمة الكتابين نتحدث بكثير من الإيجاز عنهما . كتاب "العلوم والتبادل الثقافي في الأندلس" يتحدث عن العلوم الأندلسية في إطار أندلسي بحت ، أي بمعزل عن أوروبا ، ويخلص إلى أن الأندلسيين لم يطوروا علومهم بهدف تصديرها إلى أوروبا ، بل كان اهتمامهم منصباً على أنفسهم أولاً ثم على المسلمين في الشرق ، أما كتاب "الأندلس والأندلسيون" فيتحدث عن تاريخ الفترة الأندلسية من حيث التطورات الفكرية والاقتصادية والاجتماعية . تحدد المؤلفة صفة "الأندلسي" وعلاقة أهل الأندلس بالمسلمين في حوض البحر المتوسط ، ثم تحدد "الأساطير" التي نشأت حول الأندلس (إنن فإن الحديث عن "أساطير أندلسية" لا يقتصر على باحث واحد ، بل نرى أنه يمثل اتجاهًا ، وإن كان أنصاره قلة حتى الآن).

هناك أمر آخر ينبغي أن نضعه في اعتبارنا عند قراءة هذا الكتاب. في عالمنا العربي لا يرى الناس في الأندلس إلا للصورة الوردية ، ولعل كتاباً مثل هذا الذي تقدم له يصدم تصورات الكثيرين. أما للقارئ الإسباني فهو مهياً لقراءته ، ذلك لأنه قرأ في كتابات بعض المؤلفين وجهة نظر أخرى تتحدث عن الأندلس كمجرد "أسطورة" أراد المؤلفون بناءها. تأمل مثلاً كتابات المستعرب الإسباني سيمونيت في القرن التاسع عشر<sup>(١)</sup> ، وتأمل وجهة نظر سانشيث ألبورنوث في منظرته مع أميريكو كاسترو ، ثم تأمل - أخيراً- كتاباً يوحى عنوانه بأن ما هو "أندلسي" يتعارض مع ما هو "إسباني". هذا للكتاب الأخير يقول ببساطة إنه لم يعد هناك تراث أندلسي في إسبانيا ، وبينى رأيه على أساس أن مسلمي غرناطة - وهم حملة التراث الأندلسي الإسلامي- قد تم تهجيرهم من الجنوب وإحلال مسيحيي الشمال محلهم، وعليه فإن عادات أهل غرناطة اليوم لا تمت للمسلمين بصلة ، وليست سوى عادات أهل الشمال.

نستطيع أن نؤكد أن هذا الطرح لا يصمد كثيراً أمام نتائج الأبحاث التي أجراها مؤلفون إسبان. انظر مثلاً خوليو كارو باروخا الذي خصص فصلاً كاملاً للحديث عن موريسكي مملكة غرناطة الذين عادوا إلى موطنهم الأصلي بعد طردهم منه<sup>(٢)</sup>. لكنني أريد أن

أوضح أن موضوع الأندلس ليس من المسلمات في أوروبا، بل هناك جدل بشأنه.

على أن الباحثين الأوروبيين الذين يقولون بوجود اضطهاد للمسيحيين واليهود في الأندلس يبنون أحكامهم على أساس أن المجتمع الأوروبي الحديث وقبل بوجود غير المسيحيين ولا يمارس تمييزاً ضدهم. ولا يملك المرء هنا إلا أن يقول إن الواقع غير ذلك ، وكلنا يعلم معاناة المسلمين في أوروبا عندما يريدون بناء مسجد (انظر على سبيل المثال قصة مشروع مسجد إشبيلية ، فقد تعطل البناء لأن أهل الحى "لا يريدون إرهابيين بينهم")، أما عن قصص التمييز ضد الأوروبي الذي يعتنق الإسلام - خاصة إذا كان من أصحاب المناصب العليا - فحدث ولا حرج.

عموماً فمن المهم أن نطالع وجهة النظر الأخرى إذا أردنا أن يكون تقييمنا لأمر ما موضوعياً.

يتناول الكتاب أيضاً العناصر السكانية في شبه جزيرة إيبيريا إبان الحكم الإسلامي في الأندلس ولعل من المناسب أن نبدأ بتوضيح معنى كل اسم يطلقه المتخصصون على كل عنصر سكاني. المستعرب mozárabe هو المسيحي الذي يقيم في مملكة يحكمها

المسلمون. (أما المستعرب arabista فهو الباحث المشتغل بالحضارة العربية الإسلامية)

والمدجن mudéjar هو المسلم الذي بقيم في مملكة يحكمها المسيحيون. أما الموريسكى فهو المسلم الذي لم يغادر إسبانيا بعد سقوط غرناطة الإسلامية وظل يمارس شعائر الإسلام سرا بعد أن أجبرته السلطات المسيحية على التنصر.

يتحدث الكتاب عن المستعربين mozárabes ودورهم في نقل المعارف إلى الممالك المسيحية في الشمال. يذكر أن المستعربين أقاموا في المغرب ، حين أبعدهم المرابطون إليه بعد أن ساندوا ألفونسو الأول ملك أراغون للمسيحي) .

يتحدث عن اليهود فيقول إنهم استقبلوا بارتياح وصول الفاتحين المسلمين أملاً في تحسن أوضاعهم، وإنهم سرعان ما انخرطوا في الثقافة العربية. تشير المؤلفة إلى الدور الذي لعبه اليهود في نقل المعارف العربية إلى أوروبا من خلال مدرسة المترجمين في طليطلة.

يتحدث الكتاب أيضاً عن تحويل اليهود قسرياً إلى الإسلام في بداية عصر الموحدين ، ولا يسوق أدلة موثقة على ذلك ، ويقول إن

المصادر العربية أغلقت هذا الأمر. ونرى أن على مؤرخينا مناقشة هذا الموضوع والإسهام في توضيحه.

يتضح من عرض وضع الأقليتين المسلمة واليهودية في ممالك المسيحيين بالشمال أنه لم يكن هناك تسامح ديني على الإطلاق ، ويشهد الكتاب نفسه أن المسيحيين واليهود في الممالك المسلمة كانوا يتمتعون بوضع ممتاز ، وإن لم يكن مساوياً للمسلمين.

تكتسب هذه الشهادة أهمية خاصة إذا وضعنا في الاعتبار الموقف الذي تبنته المؤلفة في البداية، على أننا لا نستطيع أن نغفل - كذلك - هذا التقييم الموضوعي الذي نراه هنا.

يتحدث الكتاب عن المدجنين (في قشتالة وغرناطة وأراغون وفالنسيا) وعن الموريسكيين (يتعرض لمحاولات تصيرهم ولاضطهادهم وللسعى إلى طمس هويتهم) وتخصص المؤلفة فصلاً للحديث عن الموريسكيين بعد طردهم من إسبانيا ( في المغرب والجزائر وتونس ).

تتحدث المؤلفة عن موقف كل من غاليمس دى فوينتيس وماركيت بيانوييا<sup>(٢)</sup> من الموريسكيين. تقول إن بيانوييا يرى أن المؤرخين اعتمدوا على الكتابات الرسمية وهي- في رأيه- "مصادر مسمومة" ووصلوا إلى نتيجة مفادها أن المجتمع الإسباني كان يكره الموريسكيين، وتقتل المؤلفة عن بيانوييا قوله: لو أن المؤرخين

الإسبان اطلعوا على الأدب الألفمبادو الذى كتبه المورىسكىون لعلوا  
أن اندماج أولئك المورىسكىين فى مجتمع الأغلبية كان ممكناً.

تعرض المؤلفه أيضاً رأى غالميس دى فوينتيس ، وهو يرى  
أن الأدب الألفمبادو يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن المورىسكىين  
كانوا مسلمين قلباً وقالباً، وأنه - بناء على ذلك - لم يكن اندماجهم فى  
مجتمع الأغلبية ممكناً.

المؤلفة تؤيد رأى غالميس دى فوينتيس ، وترى أن المجتمع  
متعدد الثقافات لم يوجد فى إسبانيا مطلقاً.

ونحن بدورنا نرى أن مفهوم "التعايش" عند غالبية المؤرخين  
والباحثين الإسبان معناه تخطى الأقلية المسلمة عن هويتها الدينية.

منذ سنوات أجريت دراسة عن مخطوطة كتبها بالإسبانية  
مورىسكى لجأ إلى تونس<sup>(4)</sup> ، ورأيت أن المورىسكى - حتى وهو  
خارج وطنه الإسبانى - كان إسبانياً شديداً التمسك بوطنه. لكنه كان  
أكثر تمسكاً بالإسلام، وقد ضحى من أجل إسلامه بالكثير. ما يهمنى  
أن أبرزه هنا هو أن المورىسكى حاول الاندماج فى مجتمع الأغلبية ،  
فغير ملابسه وارتدى ملابس للمسيحيين ، ثم تخطى فى حياته العامة  
- طوعاً أو كرهاً - عن لغته العربية وتحدث لغة أهل قشتالة. فعل

المورييسكى كل ذلك - وغيره كثير - حتى يندمج فى مجتمع الأغلبية.  
لكنه لم يتخل مطلقاً عن الإسلام.

لم يخطئ ماركيث بيتوييا - فى تصوورى - فى قراءته  
لمضمون الأدب الألكميادو ، إذ كان يتحدث عن مجتمع إسبانى  
يتعايش فيه المسيحيون والمسلمون واليهود. أما الذين ربطوا بين  
الهوية الإسبانية والعقيدة الكاثوليكية فهم الذين ثبلوا نظرية  
المورييسكى غير القابل للاندماج فى مجتمع الأغلبية.

وبعد ، فإن الهدف من ترجمة هذا للكتاب أن يتعرف القارئ  
العربى على وجهة نظر أخرى فى موضوع نراه نحن من المسلمات  
بينما يدور الجدل بشأنه فى إسبانيا.

للكتاب، على صغر حجمه، يقدم معلومات أساسية لمن يريد  
البدء فى دراسة تاريخ الإسلام فى الأندلس بعد سقوط غرناطة.  
أما القارئ الذى يريد التعمق فى الدراسة فإننا نحيله إلى كتب أخرى  
للمؤلفة ولغيرها من الباحثين وصدرت ترجماتها عن المشروع  
القومى للترجمة.

يبقى أن نقدم جزيل شكرنا للزميلة مرثيديس غارثيا أربنال  
على تعاونها - هذا هو كتابها الرابع الذى ننشره فى القاهرة -  
والمجلس الأعلى للثقافة على دعمه المستمر لنشر كتب تلقى كثيراً



من الضوء على تاريخ الأندلس في مرحلة ازدهاره وبعد سقوط دولة  
الإسلام في غرناطة.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

جمال عبد الرحمن

## الهوامش

- (١) انظر كتاب "المستعربون الإسبان في القرن التاسع عشر" تأليف ماثويلا مانثالاريس، ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٣
- (٢) انظر كتابه "مسلمو مملكة غرناطة بعد عام ١٤٩٢" ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٤
- (٣) انظر كتابه "القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى" ترجمة عائشة سويلم ، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٥
- (٤) انظر د. جمال عبد الرحمن "ثقافة موريسكي: قراءة في المخطوطة رقم ٩٦٥٤ بالمكتبة الوطنية بمدريد" ، المؤتمر العالمي الحادى عشر للدراسات الموريسكية ، زغوان ، تونس ، ٢٠٠٣

## تصدير الناشر الإسباني

تصدر موسوعة البحر المتوسط حاليًا في خمس لغات :  
الإنجليزية ، والعربية ، والإسبانية ، والفرنسية ، والإيطالية : وهي  
عبارة عن إنتاج مشترك أفرزته مؤسسة تضم عددًا من الناشرين ،  
ومراكز البحوث التي تنتمي إلى بلدان ساحل البحر المتوسط . ولقد  
كان الغرض منها إثبات ما إذا كانت منطقة البحر المتوسط - بما  
تشهده من تعقيدات وخلافات ، وتوترات - تمثل كيانًا يقتضى  
التعرض له بالتحليل والدراسة . ربما تدفعنا المعلومات المتوفرة في  
الوقت الراهن إلى المسارعة إلى افتتاح هذا المجال ؛ وذلك لندرة  
الدراسات المباشرة أو غير المباشرة التي يمكن الأخذ بها في هذا  
الشأن .

وبإته بموجب الخبرة المكتسبة من إصدار الكتب العشرين  
الأولى ، والتي تشكل الجزء الأول من هذا المشروع الشامل ، فإن  
الصراع المتوسطي يقتضى منا أن نعمل على إصدار المزيد من هذه  
السلسلة ، يومًا بعد يوم .

وترتكز مغامرة الموسوعة المتوسطية على محورين رئيسيين : محور ( التاريخ ) الذى يهدف إلى التعمق فى مجال التعرف على الهويات التاريخية ، والتراث الثقافى والفنى الهائل ، باعتبارها عناصر جوهرية تساعد على تكوين خلفية عن البلدان الحالية ، كما تساعد على التعرف على أسباب وجذور النزاعات الحالية ، من خلال ما يجرى من أحداث فى الوقت الراهن ، وفى زمن الاستعمار . والمحور الثانى ( الزمن الحاضر ) الذى يتعرض للعلوم الإنسانية والاجتماعية بما فيها من نظرة أنثربولوجية ، ونظرة تتعلق بالاقتصاد الكلى ؛ وذلك سعياً للوصول إلى تحليل التحولات والتغيرات التى طرأت على الساحة البحر أوسطية ، وخاصة تحليل النقاط الحرجة والالتزامات الدولية .

لقد أصبح البحر المتوسط يمثل أحد مراكز العصبية فى جسد مسيرة العولمة ، ولذلك فلنأنا لا نستطيع أن نغفل الروابط والعلاقات المحلية والعالمية ، وينبغى أن نتصدى من جديد لقضية حوار الحضارات .

## مقدمة

حقق الإسلام انتشاراً واسع النطاق منذ أن انطلق من مركزه الرئيسى فى شبه الجزيرة العربية ، حتى غطى خلال حقبة زمنية قصيرة للغاية مساحات شاسعة، إذ بلغت حدوده الشرقية بلاد الهند، وامتد غرباً إلى شبه الجزيرة الإيبيرية، وهناك ترسخ وجوده بوصفه قوة سياسية إسلامية خلال الفترة من القرن الثامن للميلاد حتى القرن الخامس عشر. والوجود الإسلامى فى الغرب، إنما هو علاقة التصقت بتاريخ هذه المنطقة التى أطلق سكانها عليها اسم الأندلس . إذن فإن الأندلس كان يمثل منطقة حدودية، أى حدود الإسلام الغربية. وظل يتميز بهذا الوضع الحدودى على مر تاريخه . وبالتالي اكتسب المجتمع الأندلسى فيما بعد سمات حضارتين : الحضارة الغربية، صاحبة الموروث الثقافى الرومانى والمسيحى، والحضارة الشرقية، العربية والإسلامية، مما جعله يتميز عن مجتمعات أخرى فى العالم الإسلامى إبان العصور الوسطى، خاصة بعد أن اندمج المجتمع الأندلسى اندماجاً كلياً، نتيجة لحرص الأندلسيين على إتمامهم لهذا العالم.

وسوف نعرض للأندلس في هذا الكتاب باعتباره قوة سياسية إسلامية في شبه الجزيرة الإيبيرية. وكانت سمات الواقع المتغير الذي أخذ ينحصر تدريجيا في نطاق حدوده الجغرافية، التي لا يتعين أن تكون مطابقة لما هو أندلسي، نظرا لما تضمنته هذه الحدود من مناطق مثل البرتغال وقطالونيا، إضافة إلى هوية الأندلسيين، وهي موضوع الدراسة التي تضمنها الجزء الثامن من هذه السلسلة تحت عنوان "الأندلس والأندلسيون" لمانويلا مارين. إن طبيعة الواقع المتغير، والأخذة حدوده الجغرافية في الانحسار بصورة مطردة، وهي حدود لا ينبغي مطابقتها مع ما هو أندلسي، ذلك لأنها تضمنت مناطق أخرى كالبرتغال وقطالونيا، وكذلك هوية الأندلسيين، تناولها الجزء الثاني من هذه السلسلة تحت عنوان "الأندلس والأندلسيون" لمانويلا مارين:

انحدر الأندلسيون أساسا من سلالة الإسبان - للرومانيين الغربيين، سكان شبه الجزيرة قبل غزو المسلمين لها، ثم قفزت على هؤلاء السكان الأصليين عناصر عربية قدمت في أول الأمر ضمن صفوف الحملات العسكرية، ثم ارتبطت فيما بعد بسلطة الأمويين السياسية، وكانت هذه العناصر من البربر، سكان شمال إفريقيا الأصليين، وهؤلاء كانوا يمثلون الغالبية العددية، واتسم وجودهم بالاستمرار، نظرا لقرب بلاد المغرب، وبفضل العلاقات الوثيقة التي

كانت تربط بين ضفتي المضيق على مر التاريخ، أضف إلى تلك العناصر الثلاثة الرئيسية (الإسبانية الرومانية، والعربية، والبربرية) جماعات العبيد الوافدة من مختلف الأجناس، وكان القطاع الأكبر منهم ممن وفدوا من شمال شبه الجزيرة ، وإن كانت أعداد أخرى قد قدمت من بلدان أوروبية أخرى. ولذلك اتسمت التركيبة السكانية في الأندلس بالتعدد والقيان. كان هناك أيضا تنوع ملموس إلى حد ما بين الجماعات الدينية . فلم يكن الأندلسيون من المسلمين فقط، وإن كانوا هم السواد الأعظم، وإنما عاشت معهم أقليات من اليهود والمسيحيين، وكلاهما كان مستوعبا للثقافة العربية ومندمجا فيها .

إن موضوع الزمن والمعدل التدريجي لتعريب وأسلمة سكان شبه الجزيرة الأصليين، من الموضوعات المهمة التي لم تأخذ نصيبها من الدراسة كما ينبغي (لا يتعين بالضرورة أن يكون ثمة توافق زمني بينهما)، وذلك اعتبارا من غزو إسبانيا في القرن الثامن الميلادي. كان الاستيلاء على شبه جزيرة إيبيريا عبارة عن صورة من الاتفاق على الاستسلام إلى حد كبير مع السكان المحليين ، وذلك على ضوء ما تناقلته الوثائق ومنها " حلف تودمير الشهير"، أو تيودو ميرو Teodomiro، حاكم مدينة مرسية Murcia. فقد نص ذلك على الاستسلام السلمي، والذي تم بموجب اتفاقات مع عدد من أقاليم شبه الجزيرة على الاندماج والانضمام إلى السلطة الجديدة الثقافية والدينية.

وفى المراحل الأولى للمد الإسلامى نظر بعض المسيحيين إلى الإسلام وكأنه صورة جديدة من صور الهرطقة المسيحية، التى لا تقر بالوهية المسيح ( من هؤلاء خوان دلماتسينو Juan Damasceno، الذى اتبرى للدفاع عن شرعية عبادة الصور فى عصر تحطيم الأيقونات ، ونشر كتابات عن الهرطقات المسيحية فى الشرق) ولم يفاجأ القوط الإسبان بذلك، لأنهم كانوا قد مارسوا شكلاً من أشكال الهرطقة على مدى حقبة طويلة من الزمن، وهى الأريوسية التى تنكر أيضاً لوهية المسيح. تلك الأمور ذات الطابع الأيديولوجى ، بالإضافة إلى عوامل اقتصادية أخرى (إغفاءات من الأعباء الضرائبية، أو تيسير الاضطراب فى جماعات الحكم الجديدة)؛ إضافة إلى تلاشى نخب عصر ما قبل الإسلام ، ومنها الصفوة الكنسية ، ساعدت فى مسيرة الأسلمة بخطى سريعة.

كان إيقاع مسيرة الأسلمة مختلفاً عن إيقاع عملية التعريب، فمن المعروف أن التعريب، وهو معنى التكامل اللغوى والثقافى، لا يتزامن دائماً مع التحول الدينى، أى التأسلم. (هذا الجزء مطروح فى الجزء الحادى عشر من هذه السلسلة، تحت عنوان: " الأندلس: معارف وتبادل ثقافى الذى كتبه ماريبيل فييرو \*.

أخذت هذه المسيرة فى الانتشار طوال القرنين الأولين من تاريخ الأندلس ، وترتب عليها مناخ اتسم بالتعاون أكثر من كونه



تغييراً مفاجئاً وجذرياً ، لو قدر له أن يحدث بعد الغزو، ربما يكون قد أفرز مجتمعاً جديداً متجانساً، وهو ما لم يحدث.

بقيت في المناطق الإسلامية خلايا من المسيحيين العربيين (وهؤلاء ما عرفوا بـ"المستعربين" عندما هاجروا إلى المناطق المسيحية في الشمال) حتى أواخر القرن الحادي عشر على الأقل، كما بقيت جماعات من اليهود حتى أواخر القرن الخامس عشر ، واندمجت تلك الجماعات اندماجاً كلياً بموجب ما عرف بـ"عهد الزمة"، وهو نظام يكفل لهم الحماية ، ويسمح باحتفاظهم بديانتهم والقوانين الخاصة بهم، وسلطتهم الكنسية، كما يكفل لهم استقلالاً نسبياً في إطار حالة من الإذعان والخضوع. وهذا يعني أن غير المسلمين كانوا خاضعين لنوع من التمييز (تحمّلوا أعباء ضريبية قاسية ، مما دفع كثيرين منهم إلى تغيير عقيدتهم الدينية ) إلا أنهم لم يتعرضوا للاضطهاد.

نقلت السلطات المسيحية فيما بعد هذا النظام ، وانتهجت تطبيقه في ممالك الشمال ، عندما بدأ التوسيع المسيحي في الجنوب على حساب الأراضي الإسلامية التي تم ضمها بما فيها من سكان مسلمين ("المدجنين" واليهود).

هذه الأقليات (المستعربون والمدجنون واليهود) التي وقعت في أيدي المسيحيين أو للمسلمين نتيجة لما شهدته الحدود من تعديلات ،

أو التي اضطرت إلى الهجرة تحت ضغط الظروف الاقتصادية والسياسية، تعتبر أهم حلقات الاتصال التي انتقل عبرها التأثير الإسلامي إلى المناطق المسيحية.

إنّ فإن تشريع العصور الوسطى في شبه الجزيرة الإيبيرية، سواء كان في المناطق الإسلامية أو المسيحية، اعترف بمشروعية استقلال ذاتي للطوائف الدينية، إلا أن ذلك الاعتراف كان مقترناً بصورة من صور التمييز تشوبها نظرة دونية، من جانب مجتمع الأغلبية، سواء كان من المسيحيين أو من المسلمين، أضف إلى ذلك أن وجود تلك الطوائف واتدماجها القانوني، كان مشروطاً بالالتزام بالانخراط في مجالات مهنية معينة، وبالنسبة لممالك الشمال كان ذلك الوجود مشروطاً بالإسهام في تعمير المناطق التي تم الاستيلاء عليها. إنّ فإن هذا الوضع يعتبر بعيداً عن المثالية، ولا وجه للمقارنة بينه وبين قيمنا الحديثة القائمة على التسامح والتعددية الثقافية، وتتطوى ضمناً على حقوق المواطنة، والإقرار بكافة الحقوق، وهذا ما لم يتوفر في مجتمع ما قبل العصر الحديث.

استمرت هجرات الأندلسيين إما بسبب مشكلات سياسية واقتصادية داخلية وإما نتيجة لنقل من مناطقهم تدريجياً، أو حتى الاستيلاء عليها تماماً بعد الاستيلاء على غرناطة عام ١٤٩٢، على

مدى فترة زمنية طويلة، اعتباراً من القرن الحادى عشر، وحتى طرد المهريسكيين فى مطلع القرن السابع عشر. وكان الأندلسيون فى نزوحهم يقصدون جهتين، إحداهما الممالك المسيحية فى شبه الجزيرة، على أثر زحف الحدود السياسية نحو الجنوب، والاتجاه الثانى كان صوب الأراضى الإسلامية بالساحل الجنوبى للبحر المتوسط، وبخاصة منطقة الشرق الأوسط.

لهذا فإن الظواهر المتعلقة بهجرة أهل الأندلس تعتبر ميداناً جذاباً لعمليات التبادل الثقافى . فقد كان الأندلسيون رسلاً انتقلت عن طريقهم الثقافة من الجنوب إلى الشمال ومن الشمال إلى الجنوب، فقد استقرت جماعات منهم - كالموريسكيين - طوال قرن من الزمان فى مناطق خاضعة للمسيحيين قبل أن يطردوا ويستوطن قطاع كبير منهم فى الشمال الإفريقى، لقد أفرز المهاجرون بعض العوامل الرئيسية المشتركة فى كلا جانبي البحر المتوسط الغربى.

ثمة صورة أخرى من صور الهجرة الأندلسية تمثلت فى العلماء والصوفيين والأدباء الذين نزحوا إلى بلاد المشرق. ولبيت هنا بصدد التعرض لهذا الموضوع، فهو مطروح بالفعل فى الكتاب الحادى عشر من هذه السلسلة، وهو من تأليف ماريبيل فييرو M. Fierro، وقد أشرنا إليه سلفاً .

بيد أنه يتعين أن ننوه إلى أن الأندلس بوصفه مجتمعًا إسلاميًا كان على اتصال ثقافي وفكري وثيق مع الشرق، بشكل دائم، وذلك عن طريق تلبية فريضة الحج إلى مكة، ومن خلال سعى كل من كان يتطلع إلى أن يكون عالمًا، لتحقيق رغبة ملحة في التزود بالمعرفة، إلى الارتحال وزيارة بلاد الشرق لمقابلة مشاهير العلماء في مختلف البلدان الإسلامية.

كثيرون كانوا أولئك الذين أقاموا بعيدًا عن الأندلس، وخاصة في مراحل تاريخية كان مناخ الإقامة فيها بهذه المنطقة غير مواتٍ لهم ( كما حدث بالنسبة لبعض الصوفيين ) لو لتوفر فرص العمل في مناطق أخرى ، كما كان الحال في مصر بعد غروب شمس الفاطميين.

كان الأندلس شأنه شأن أى مجتمع متعدد الأجناس، مهينًا لتفجر الصراعات العرقية والدينية ، وهو ما تميل "أسطورة الأندلس" إلى محو هذه الصفة عنه، حيث تقدم لنا إطارًا مثاليًا عامًا يسوده جو من التعايش الغزلى بين ثلاث ثقافات. لقد كانت هناك ثلاثة أديان حقا ( ولكن ثقافة واحدة فقط، هي الثقافة العربية الإسلامية ) أفرزت حالة من الثراء الثقافى منقطع النظير، ساهمت فيه جميع الطوائف. إلا أن الأقليات الدينية مرت في الأندلس بظروف عصرية، وإن كانت تلك

الظروف لم تدم إلا فترة قصيرة، وإن كانت قاسية لما عمدت السلطة الحاكمة إلى فرض شكل من أشكال التعصب الديني، وخاصة في أوائل عهود المرابطين والموحدين، وكذلك كان حال المسلمين الرافضين لتلك الحركات السياسية والدينية.

عمد كل من المسيحيين واليهود إلى تلك الفترات إلى النزوح إلى المناطق المسيحية ( وإن اتجه بعضهم إلى شمال إفريقيا ، كما سيتبين لنا ) ، كذلك لجأ من وجهت إليهم تهمة الزندقة ، من المسلمين، إلى مناطق إسلامية أخرى. و من ناحية أخرى ، وفي الوقت نفسه تقريباً، بدأت كفة المسيحيين ترجح ، وذلك اعتباراً من القرن الثالث عشر، في شبه الجزيرة ، ثم بدأت في المناطق الشمالية مرحلة اصطيفت بشدد، أخذ يتصاعد تدريجياً تجاه الديانتين الآخرين: الإسلام واليهودية .

نحن نقترح إذن منطقة حظيت مؤخراً باهتمام كبير من جانب جهات متعددة (أكاديمية، وثقافية ، وصحفية، وسياسية،... إلخ)، منطقة شهدت ممارسة معتقدات مختلفة، أدت إلى نسج أسطورة، أسطورة جميلة، تطرح - ككل الأساطير - نموذجاً وتعضده . وكون هذا النموذج جذاباً وإيجابياً، لما يطرحة من إمكانية إقامة مجتمعات جماعية تخلو من التوترات والصراعات الداخلية، وتزداد ثراء

بفضل التعايش المتبادل، والتزاوج الثقافي، ينبغي ألا يدفعنا إلى إغفال أن الأسطورة شيء ، وتكوين التاريخ شيء آخر. فإذا أخفى النموذج المشكلات، فإنه أيضا لا يطرح لها حولا. وانطلاقاً من الاهتمام بالحاضر حقيقة، سوف أحرص هنا على التصدي لموضوع التبادل الثقافي، وقضية بناء هويات مختلف الجماعات والطوائف، وهي هويات تخضع للتغيير حسبما تفرضه الظروف. فالقضية تتعلق بعالم (سوف أحاول التعرض له) تنطلق في أرجائه الأفكار المنتشرة بين طوائفه ومعتقداته المتنوعة بسهولة ويسر، ولذلك يتعذر استيعاب كل ما يدور داخل محيط كل طائفة من طوائفه الدينية للثلاث دون الإشارة إلى طوائف أخرى. كلما اتطوت الكيانات المتعددة على عناصر مختلفة ( دينية، ثقافية، اجتماعية) مكتسبة بذلك أهمية كبيرة كانت أو صغيرة، على ضوء ما يطرأ عليها من تغييرات على المحيط الذي تعيش فيه، فعادة ما تكون هذه الكيانات متقلبة متغيرة. وسوف أحرص على إيضاح أن عملية التحول إلى دين من الأديان، لم تحدث انطلاقاً من مجرد اقتناع إيماني بتعاليم هذا الدين ، إنني أعتقد أن مختلف عمليات الهجرة التي قام بها الأندلسيون، تكشف كيف أن الأمر كان عبارة عن اعتناق ثقافة ماء، بالمدلول الأنثروبولوجي للفظ ، قبل أن يكون انخراطاً في نظام ديني ، وأن

معدل هذا الانخراط ، إنما هو معدل متغير، ومحصلة مكونات متعددة.

ومن الناحية التاريخية أيضاً، نلاحظ أن الدراسات التي نحن بصددھا الآن، قد واجهت عبئاً أيديولوجياً قوياً طبقاً للمفاهيم المختلفة للهوية الإسبانية التي كانت مثار جدل منذ القرن التاسع عشر: وهو ما عرف بـ"مشكلة إسبانيا" فالمسألة تتعلق إذن بالهوية، الهوية الإسبانية هذه المرة . هوية قدر لها أن تتسم بسمات غير قابلة للتغيير في ذلك الحين.

ومن وجهة النظر الأوروبية، أو الغربية، فإن السمة الغالبة على العصور الوسطى الإسبانية، والتي ميزتها عن غيرها، إنما تكمن في وجود الإسلام في شبه الجزيرة الإيبيرية: صراعات طويلة، وتربص كل طرف بالآخر، وعمليات التأثير والتأثر، كلها عوامل تبرز جانباً كبيراً من تاريخ وثقافة مختلف الأقاليم الإيبيرية. قد بدت هذه السمة أحياناً، كما حدث مؤخراً، وكأنها عامل من عوامل الإثراء، وعنصراً من عناصر شخصية متميزة، ولكنها بدت في أحيان أخرى وكأنها سبب من أسباب تخلف الإسبان بالنسبة للأمم الأوروبية الأخرى. وكم ألمت الإسبان مقولة إن "إفريقيا تبدأ بجبال البرانس" منذ أواخر القرن الثامن عشر.. إن "أصل الإسبان وكيانهم"

هذا إذا رجعنا إلى عنوان الكتاب الشهير لأميريكو كاسترو Americo Castro، نجد أنه قد تحدد دائماً من منطلق العلاقة بذلك الصراع وتلك المواجهة، أو من منطلق عمليات التأثير المتبادل. هذا ويتوقف طرح هذا الموضوع على مواقف أيديولوجية (وفي هذا ينبغي أن نذكر بالجدل الشهير الذي دار حول هذه القضية بين رأى أميريكو كاسترو، وسانشيث ألبرنوث Sanchez Albornoz وسواء كان للطرح على ضوء الصراعات، أو مستنداً إلى عوامل التأثير والتأثر) وليكن واضحاً أن الأول لا يعنى إغفال الثاني، أى أن التوترات والصراعات بما فيها الحرب، لا تقف عائقاً أمام المؤثرات الثقافية) فإن الأقليات تمثل محور تواصل حقيقى، ومن ثم، فإننا إذا أخذنا فى الحسبان تلك القائمة المطولة من الكتب، فإن من الصعوبة بمكان أن نضع تصوراً نزع أنه تصور موضوعى، خاصة أن توظيف هذه الدراسات من وجهة النظر الأيديولوجية قد ميز مناطق عن مناطق أخرى مازالت معلوماتنا الإيجابية عنها غير كافية. فمثلاً يؤكد سانشيث ألبرنوث على أن استيعاب المستعربين<sup>(\*)</sup> mozarabes للثقافة العربية كان استيعاباً سطحياً، ومهما كان الأمر فإنهم لم يكونوا مؤهلين لنقل الثقافة الشرقية. ويرى أن الأندلس لم يشهد أى ثقافة شرقية، وأن ما كان

---

(\*) يجب أن نفرق هنا بين المستعرب mozarabe (المسيحي الإسباني الذى يقوم فى مملكة إشبيلية مسلمة) وبين المستعرب arabista (الملتص بالمهتم بالثقافة العربية). (المراجع)



هناك إنما هو مجرد مسحة خفيفة مألها الزوال، وهذه المسحة فرضت نفسها على شعوب رومانية وقوطية وثقافتهم في ذلك البلد الذي أطلق عليه "إسبانيا المسلمة"، ولهذا السبب لم تجر أبحاث حول التنظيم الاجتماعي للمستعربين في القرن التاسع في ليون Leon ، كذلك لم يتم إجراء أى دراسة بصدد التغييرات التى أدخلت على النظام الغذائى أو على تقنيات الزراعة ولا على مدى التأثير على المؤسسات العمرانية.

كل ذلك يتفق وتناول تاريخ الهجرة الأندلسية، موضوع هذا الكتاب، للعلاقة الوثيقة بين هذا التاريخ وتاريخ الأقليات فى مناطق شبه الجزيرة فى العصور الوسطى. ولقد كانت هذه الأقليات وما زالت، تمثل كما ذكرنا قيمة رمزية كانت محل تفسير طبقاً لوجهات نظر مختلفة.

لنستقرئ ثانية موضوع للمستعربين mozarabes الذى تناوله الفصل الأول من هذا الكتاب . كان للمستعربون بمثابة نقطة محورية فى عملية إقرار جذور فترة ما قبل الإسلام فى بنيان الكنيسة الإسبانية، ومقارها الأسقفية، كما كانوا عاملاً من أهم العوامل الأيديولوجية فى مسيرة الحملة العسكرية الإسبانية الطويلة على المناطق الإسلامية فى شبه الجزيرة والمغرب. كما كانوا أيضاً هم

العنصر الأيديولوجي، الذي استعانت به الممالك المسيحية وخاصة مملكة أستورياس- ليون، للاضطلاع بمسئولية التصدي لموضوع التراث القوطي، وإضفاء صفة الشرعية على عملية حرب "الاسترداد". لقد تحول المستعربون في أيامنا هذه، كغيرهم من الأقليات الأخرى في أراضي شبه الجزيرة المسيحية والإسلامية، إلى عامل أيديولوجي على قدر كبير من الأهمية، كما تعتبر هذه الأقليات دليلاً يحتذى لإضفاء صفة المشروعية على التعددية الدينية أو الفكرية في المجتمعات المعاصرة، سواء في العالم الأوروبي بما ينطوي عليه من مشكلات قومية متطرفة ولزمات لفرزتها الأقليات المهاجرة، أو في العالم الإسلامي بما يكتفه من تيارات إسلامية اصطبغت بصبغة دينية واحدة.

ويعد هذا الكتاب استكمالاً لكتابين لكل من مانويلا مارين M. Marin، وماريبيل فييرو M. Fierro سبق أن أشرنا إليهما، ويتمين ألا يقرأ بمعزل عنهما، وهو يتناول جماعات مختلفة في المجتمع الأندلسي، سبق أن عاشت خارج الأندلس، وهذه المجموعات أو الجماعات أقدمها في هذا الكتاب، وقد راعيت في طرحها تقسيماً تاريخياً طبقاً للزمن الخاص بكل منهما، والمناطق التي توجهت إليها كل مجموعة. وسوف أبدأ بمناطق الشمال بصديت عسن المستعربين Mozarabes واليهود والمدجنين.

## المستعربون

أصل كلمة Mozárabe بالإسبانية ، و *mossarabe* بالقطالونية ، و *Mocarab* بالبرتغالية غير معروف. ويرى مستعربو القرن التاسع عشر *arabistas* أن هذا اللفظ جاء من كلمة "مستعرب" ، أى من تم تعليمه الثقافة العربية ، أو من يزعم أنه عربى ، وهذا اشتقاق مقبول ، إلا أن هذه التسمية لم ترد فى نصوص الأندلس العربية ، ولم يأت ذكرها مطلقاً فى سياق الحديث عن الأقليات المسيحية التى عاشت فى كنف الأندلس ، بل وردت فى نصوص العصور الوسطى المسيحية عند الحديث عن المسيحيين الذين نزحوا من الأندلس ، أو أطلقت على من بقى من المسيحيين فى المناطق الإسلامية التى استولى المسيحيون عليها. وقد وصفهم الأسقف رودريغو خيمينيث *Rodrigo Jiménez* فى رسالة إخبارية له فى القرن الثالث عشر بالعرب المختلطين ، علماً بأن لفظ مستعرب *mozárabe* ذكر فى إهدى وثائق ليون *León* فى شهر مارس عام ١٠٢٤ ، تحدث فيها الكاتب عن ثلاثة مستعربين تحت عنوان *Tres muzárabes de rextiraceros*.

وأشار في هذا النص إلى المسيحيين المستعربين الذين وجدوا في ممالك الشمال منذ أن بدأت مملكة ليون León حملاتها التوسعية ، وحتى غزو طليطلة في عام ١٠٨٥ ، إلا أن النص خلا من الإشارة إلى المسيحيين الذين بقوا في الأندلس ، وهؤلاء سوف أكتفى بمجرد الإشارة إليهم في معرض الحديث (يرجع القارئ المهتم إلى الجزء الخاص بماريبييل فييرو سالف الذكر).

هذا ويطلق لفظ مستعرب Mozárabe أيضا على الأعمال الفنية والمعمارية والموسيقية ، وعلى الصور التوضيحية في المخطوطات، أو المتعلقة بطقوس المستعربين ، وقد أطلق أيضا على الأساليب الفنية التي كانت تمارسها جماعات أو أشخاص غير مستعربة ، كما هو الحال بالنسبة لفن المدجنين Mudéjares. أي أن الأسلوب الفني المستعرب لا يعنى بالضرورة أنه ظهر في وجود سكان مستعربين.

### مملكة أستورياس وليون:

عاش المستعربون في مملكة أستورياس وليون منذ القرن التاسع على الأقل . وقد جاءوا ضمن وفود المهاجرين التي تدفقت من الأندلس ، وهم في غالبيتهم من رجال الدين والرهبان. وقد عاشوا هناك جنباً إلى جنب مع المدجنين ، واختلطوا معهم في بعض

الأحياء ، وعاشوا فى مناطق استولت عليها مملكة ليون الفتية. وللتعرف على موضوع أصل السكان المستعربين والمدجنين فى منطقة حوض نهر الدويرو Duero ، يتعين أن نتعرض لقضية جدلية قديمة دارت حول إخلاء هذه المنطقة من السكان.

لعل أهم من تعرض لهذا الجدل فى حينه هو مينينديث بيدال Menéndez Pidal ، الذى يرى أن عملية الإخلاء تلك لم تحدث مطلقاً، وسانشيث ألبرنوث Sánchez Albornoz الذى يؤكد وجود منطقة خالية إستراتيجية حول نهر الدويرو كانت تفصل بين المسيحيين والمسلمين، لحمايتهم من الجيوش عند وجود منطقة فاصلة يتعذر فيها إمداد الجيوش بالمؤن. ولعل وجود الأسماء التى تنتمى إلى أصول عربية بوفرة فى مملكة ليون ، اعتباراً من القرن العاشر على الأقل ، إلى جانب اتساع المواقع الجغرافية ذات التسميات العربية فى المنطقة نفسها ، من أهم المؤشرات التى ترجح وجود تجمع سكانى كبير من أصل مستعرب ، ممن هاجروا فى فترات سابقة ، وهذا التجمع أعاد تعمير المنطقة ، وما شجع هؤلاء السكان على الهجرة إلى ليون السياسة التى كان يتبعها ملوك ليون ، إضافة إلى عمليات الاضطهاد التى تعرضوا لها فى الأندلس.

وجاء فى وثائق ليون ، منذ القرن التاسع ، ميل جارف من التسميات التى ترجع إلى أصول عربية. ومن أهم الخصائص

المميزة لتلك التسميات ما يتمثل في المحيط العائلي للواحد من وجود  
 أسماء عربية وغير عربية. وترجع هذه الخاصية التي تميز منطقة  
 حوض نهر الدويرو، إلى وجود عنصر مستعرب Mozarabe ، هاجر  
 من الجنوب وأقام في هذه المنطقة على مدى القرن العاشر الميلادي.  
 وقد أطلق اسم مستعرب على هذا العنصر طبقاً لثلاثة معايير. تعريب  
 توكده الأسماء ، واتصاله بالمحيط الكنسي، بل والانتماء إليه دليلاً  
 على أن قطاعاً من هذا العنصر على الأقل كان مسيحياً ، وأخيراً  
 - كما سبق أن أشرنا ، وهذا عامل جوهري- يتمثل في أن المناطق  
 التي يقيم بها هذا العنصر كانت خالية من السكان، وأنها شهدت تدفقاً  
 بشرياً في الفترة التي سبقت الإشارة إليها فقط. وإذا اعتبرنا المعيارين  
 الأول والثاني أمراً مسلماً به فإن الافتراض الخاص بالمنطقة الخالية  
 الإستراتيجية نكتشفه الشكوك ، وكل الدلائل تشير في الأذهان أن سكان  
 تلك المنطقة الأصليين أقاموا بها إقامة دائمة وليست متقطعة. وإذا  
 كان هذا لا يتعارض مع وجود حركة هجرة مؤكدة من الجنوب فإن  
 هذه الحركة لم تكن بالكثيفة كما يرى مؤيدو نظرية الإغلاء السكاني.  
 فالأبحاث الأثرية التي أجريت حول أسماء المعالم الجغرافية في  
 السنوات الأخيرة تشير بوضوح كبير إلى أن حركة الاستيطان  
 البشرية في منطقة سلسلة الجبال الوسطى ووادي نهر الدويرو كانت  
 تتسم بالاستمرارية إبان العصور الرومانية والقوطية.

ولقد أكدت أبحاث أجريت مؤخراً، مستندة في ذلك إلى نتائج تحليلات خاصة بمباحث حول أسماء بعض الأعلام الجغرافية، أن سكاناً من المسلمين والمسيحيين سبق أن أقاموا إقامة ثابتة ومستقرة بالمنطقة. وتشير الوثائق المحفوظة إلى أنه قبل عام ١٠٨٥م، وهو العام الذي تم فيه غزو طليطلة، وأبله *Ávila*، وسيغوبيا *Segovia*، كانت هناك في تلك المناطق أسماء أعلام جغرافية تؤكد وجود سكان يتحدثون العربية.

ويكرر الوضع إلى حد كبير في كل من مقاطعتي بورغوس *Burgos* وسورية<sup>(\*)</sup> الحاليتين : ثمة مؤشر على وجود سكان أصليين أقاموا في تلك المناطق بعد تعريبها، بل وأسلمتها، وذلك قبل إقامتهم في المناطق المسيحية.

هناك أمثلة معروفة بين المنتسبين إلى الطبقة الأرستقراطية تتحدث أيضاً عن وضع العرب المختلطين : هناك *أنيغو أرسنا* (٨٠٣-٨٥١) *Ifigo Arista*، أول ملوك نبره *Navarra*، ربما كان ابناً لأحد المواطنين للباسك *Vascos*، الذين سبق أن دخلوا في الإسلام، ثم عادوا بعد ذلك إلى ديانتهم القديمة، وعموماً، فقد كثر له أخ غير شقيق مسلم، وضهر مسلم . مثال آخر : في أوائل القرن

---

(\*) قسالة القديمة. ( المراجع )

العاشر، تزوجت إحدى الأميرات المسلمات المنتسبات إلى الأسرة الحاكمة في سرقيطة بنى قاسى (وهم بدورهم من سلالة نبيل إسباني هو الكونت كاسيو)، تزوجت الملك فرويلا Fruela الثانى ، ملك ليون، بعد أن اعتنقت المسيحية وأصبح اسمها أوركا Urraca.

كل هذا لا ينفي أن مستعربين هاجروا فى عهد ألفونسو الثالث، قاصدين المناطق الشمالية. وفى حوالى ٨٥٠م قامت حركة عرفت باسم "شهداء قرطبة" : وهم جماعة من المسيحيين استفزهم الانحسار المتنامى للهوية الدينية والثقافية (تراجع تدريجى للغة اللاتينية، واللغة الرومانثية<sup>(٩)</sup>، وإحلال العربية مكانهما)، قامت هذه الجماعة بمحاولة لدعم المسيحيين تمثلت فى توجيه السباب للإسلام علانية، مما أدى إلى إبطال العمل بعهد "الزمة" وكانت هذه الشتائم بمثابة إقدامهم على الانتحار بالفعل حيث نفذ فيهم حكم الإعدام (انظر. المرجع المذكور لمارييل فييرو M. Fierro). وقعت تلك الأحداث فى عهد عبد الرحمن الثانى ومحمد، وترتب عليها موجة من الهجرة، دامت طوال قرن من الزمان، وإن كانت بأعداد محدودة. أقام المستعربون، كما أقام غيرهم من المهاجرين من الشمال فى محيط عائلى، أو جماعات من الرهبان، خاصة فى الجزء التابع

---

(٩) هى اللغة المشتقة من اللاتينية والتي كان يتحدثها بعض الأقليم الإسبانية. (المراجع)



لمملكة ليون، بواندى نهر الدويرو. قدموا من مناطق شهدت فيها الزراعة تقدمًا تقنيًا وهندسيًا مهمًا، اعتبرت إضافة جديدة إلى الأساليب التقليدية السائدة في منطقة البحر المتوسط. وأبرز كليك Glick، انتشار استخدام زيت الزيتون، كمؤشر لمدى تأثير المستعربين في اقتصاد مملكة ليون.

يقول المؤرخ العربي ابن حيان أن سموره Zamora استقبلت مسيحيين وفدوا من طليطلة في عام ٨٩٣، وأن هؤلاء المهاجرين أقاموا سور المدينة، وما إن تم تحصين السور، إلا وهرع إليه قوم من جانب الحدود العربية. كما استقبل الفونسو الثالث شخصيا مطران إيركافكا، وكان مستعربًا، ثم منحه حق الإقامة في أورينسي Orense. كما ابتاع كنيسة القديسين فاكوندو Facundo وبريميتيفو Primitivo، وكانت خرابًا، وذلك في عام ٩٠٤، لتكون مقرًا يقيم به رئيس دير يدعى الفونسو مع رفاق له، قدموا من الأندلس، وأصبحت هذه الكنيسة فيما بعد هي دير ساهاغون Sahagun. واختار الملك رئيس الدير ألفونسو هذا ليكون معلمًا لابنه الأكبر السيد غارثيا Don García. وأقام عدد من الرهبان الذين قدموا من قرطبة أنيرة إسكالادا Escalada، وماثوتي Mazote، وكاستانييدا Castañeda. كذلك أقامت مبيدة تدعى بالماريا Doña Palmaria مع رفيقاتها، وكن قد قدمن أيضًا من الأندلس، دير فيمي Vime، في شنبرية Sanabria، ويحتمل أن

يكون هذا الموضوع قد تكرر بالنسبة لأديرة أخرى، بقى فيها ما يحمل اسم مار تينوس أبا كوردوينسيس *Martinos Abba Corderensis*.

لم يسهم هؤلاء المهاجرون في نقل المعارف التى تتعلق بالخصائص الفنية العربية - والتى تركت أثارها فى عمارة المنطقة- فحسب، بل أسهموا أيضا فى نقل اللغة العربية فترجموا إليها مخطوطات الأديرة اللاتينية. وهنا يتعين أن نأخذ فى الاعتبار أن سفر المزامير، والمزامير، وكتب اللاهوت، سبق ترجمتها فى الأندلس إلى اللغة العربية، وأن المستعربين كانوا يقرءون الكتب الدينية بالعربية، فقد كانوا يجيدونها أكثر من إجادتهم للغة اللاتينية (انظر الفصول الخاصة بهذا الموضوع بالمرجع السالف ذكره لمار بيل فييرو *M. Fierro* ) . ويرجع مخطوط دير سيلوس *Silos* بعنوان *Breviarium et missale Mazarabicum* ، والمعجم العربى اللاتينى، إلى القرن العاشر، وقد كتب كلاهما جزئيا على الورق (وهذا كان يمثل إضافة يرجع الفضل فيها إلى المستعربين) وهما محفوظان حاليا فى ليندن *Leiden* .

لم تنقطع علاقات المستعربين فى ليون بإخوانهم فى الدين بالأندلس مطلقا، وهذا ما تؤكدُه عمليات تبادل المخطوطات ورفقات القديسين فيما بينهم. ويُعتبر رجال الكهنوت المستعربون هم ورثة

الكنيسة القوطية الغربية. ومن الغريب أن رجال الكهنوت هؤلاء، الذين تعمقوا في دراسة الثقافة العربية، هم الذين أدخلوا في الممالك الشمالية فكرة التواصل أو الاستمرارية للقوطية باعتبارها من العناصر الشرعية، كما أدخلوا أيضا فكرة الاسترداد<sup>(\*)</sup> Reconquista، التي ظلت غائبة طوال القرن الأول من توسع الممالك المسيحية نحو الجنوب. بفصل هؤلاء المستعربين جزئيا، تحولت أوبيدو Oviedo أولاً، بل وليون بالذات، إلى مركز إشعاع للكتب القديمة، تكدست فيهما مخطوطات، لم تنعكس آثارها على إثراء الثقافة الكنسية فحسب، بل ساعدت وأسهمت في أن تصبح مملكة ليون صورة طبق الأصل واستمراراً لمملكة القوط. ولقد واصلت المخطوطات تدفقها من جنوب شبه الجزيرة طوال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين بفضل تدفق هجرات المستعربين الأندلسيين.

كان هناك كثيرون ممن هم على دراية بالثقافة العربية في بلاط ليون ومقر الأسقفية، بل وشغل بعضهم مناصب مهمة، علاوة على الوصي على ولي العهد الذي أشرنا إليه، كان بين رجال القصر الملكي عشرة قضاة، وخمسة معاونين، وثلاثة خدم للملك في وظائف

---

(\*) مصطلح 'الاسترداد' لا يقبله الباحثون الإنساني كلهم، فالاسترداد هو العودة إلى امتلاك شيء كان موجوداً وهناك مؤرخون إسبانيون أن المسلمين هم الذين أوجدوا تلك الترميمات. راجع اميريكو كاسترو ومناقشته مع سقشوث البورتوت (المراجع).

قضائية. أضف إلى ذلك، مفوضاً أو مفتشاً أمنياً، وقاضياً خاصاً بالملك، وأمين صندوق (خازن)، وكونت، وأربعة من كبار الخدم، ومفوضين، وخازن مؤن، وفارس الملك (حامل راية) فى قشتالة، ورئيس شرطة (صاحب الشرطة) فى مدينة تورو Toro وآخر فى ساهاغون Sahagun، وهذا الأخير جاء من قرطبة فى عام ١٠٠٣، لعقد اتفاقات سلام مع المسيحيين بعد وفاة المنصور. كان يغلب على أسماء هؤلاء العاملين لقب القرطبى والطلبلى. ولعب هؤلاء الأشخاص، المستعربون من الأعماق، بما كانوا يتميزون به من إلمام بشئون الإدارة، والتنظيم، والسياسة، دوراً رائداً فى تطوير مملكة ليون الشابة. وفى عام ٨٨٣، كلف ألفونسو الثالث المستعرب دولثيدو Dulcidio، الذى لجأ من طلبلة، والحقه إلى بلاطه، بمهمة فى قرطبة، وكان لهذه المهمة صدى كبير وانعكاس على ثقافة مملكة أستورياس - ليون، وكان دولثيدو قد نقل إلى أوبييدو رفات القديس إيولوجيو<sup>(٥)</sup> Eulogio، والقديسة ليوكاديا Leocadia قبل أن يتم تعيينه أسقفا لسلانكا Salamanca.

لا يتسع المجال هنا لسرد الاتصالات العديدة والمتكررة مع

---

(٥) كان إيولوجيو هذا سبب الإسلام طفاً فى قرطبة إبان خلافة عبد الرحمن الثانى، وقد سبى الخليفة كثيراً على تطلوه، حتى توفى، وما إن تولى الخلافة من بعده فإنه محمد حتى أصر بإعدام إيولوجيو، وهكذا انتهت الفتنة. (المراجع)

الأندلس عبر المستعربين، ولكن يتعين علينا أن نأخذ بعين الاعتبار على سبيل المثال لا الحصر الاتصالات التي أجراها فرناندو الأول ملك ليون، وبصورة خاصة اتصالات الفونسو السادس مع مملكة طليطلة العربية، ومع جماعات المستعربين في قلنبرية coimbra ، ولا ينبغي أن نغفل أيضا البعثة التي أرسلها الفونسو السادس إلى إشبيلية في عام ١٠٦٢، والتي أسفرت أسانا عن نقل رفات القديس إيسيدور San Isidor من إشبيلية إلى ليون. وكان مهندس تلك الاتصالات من قبل التاج المسيحي مع المسلمين الكونت المستعرب سيمناندو داليد Sisanando David، وكان في خدمة السلطان المعتضد أولاً، ثم التحق فيما بعد بخدمة فرناندو الأول، وهو الذي أوصاه بغزو قلنبرية coimbra عام ١٠٦٤، وقد عُين حاكماً لها فيما بعد. وعين أيضاً مستشاراً لألفونسو السادس، وشارك في المفاوضات التي أجريت بشأن استسلام طليطلة.

إذا كانت وثائق ليون الخاصة بالمصور الوسطى المتقدمة زاخرة بأسماء عربية لأشخاص ولأعلام جغرافية ، فهي غنية أيضاً بمفردات عربية الأصل ، تؤكد مدى التأثير العظيم الذي أحدثته المؤسسات الإدارية الإسلامية التي أدخلها وأدارها المستعربون. قلما وجدت هذه الألفاظ في المجال الزراعي، ولكنها موفورة في المجال العمراني والمناصب الإدارية المعنية، منها على سبيل المثال Alvasile

أى الوزير، و Sahbasçorta أى صاحب الشرطة ، و zavazouke أى صاحب السوق، و Alcakle أى القلند Sialcadei، والقاضى almoxerif أى المشرف، هذا بالإضافة إلى عدد لا نهائى من الألفاظ المتعلقة بالجانب الاجتماعى والإدارى. وتكشف المفردات المتعلقة بالنظم العمرانية، والأحياء، والتحصينات، والعناصر المتصلة بالمدن، مدى التأثير الإسلامى العربى.

فى أوائل العصور الوسطى كانت حالات الإنفغال الحضرى والزراعى منفصلة بعضها عن البعض الآخر فى الممالك المسيحية ، خلافاً لما كان يجرى فى الأندلس. وقد لمست أول حركة للتركز فى أواخر القرن العاشر، ثم تصاعدت فى القرن الحادى عشر. أما ذلك الوضع الحضرى المبكر فى كل من قشتالة وليون فإنه يتميز بتأثر شديد بالنماذج الإسلامية، ربما كان ذلك نتيجة لتقليد أقرب النماذج، أو أنه يرجع إلى مكانة صاحب السيطرة، وربما كان ذلك أيضاً نتيجة لهجرة المستعربين. ومن السمات المميزة لهذه العملية، انتشار الكلمة العربية المدينة (medina) ، والتى أفصح خايمى أوليفر Jaime Oliver عن مدلولها كباعث للحياة الحضرية فى قشتالة. وقد ظهر هذا اللفظ فى مناطق لم يشغلها المسلمون على الإطلاق، وخاصة فى شمال قشتالة القديمة، بل وفى بلاد الباسك حيث كانت كلمة مدينة medina تعنى مدينة محاطة بمور، بها قلعة، وساحة أو سوق. ومن دلائل

ذلك أيضا الأسماء المكثبة المشتقة من كلمة السوق zoco، التي نشاهدتها في بلاد (الباسك) "ozoga" أو "asoka". وفيما يبدو أن الصيغ الحضرية عموما كانت قد اصطفت بدلالات إسلامية في عهود مبكرة كما تشير ألفاظ مدونة بالوثائق، منها arrabal بمعنى الرابض، adarve بمعنى الدرب، و Alcazaha وتعني القسبة، و aldea وتعني الضيعة... إلخ، وهي ألفاظ تدل على أجزاء طبيعية من المدينة. ثمة ألفاظ أيضا، سبق أن ألمحنا إليها، تعني الإشارة إلى السلطات والمؤسسات الحضرية. وقد حدث في عصر متأخر أن تطور المدن في قشتالة وليون أصبح يمتد في خط متواز مع المدن الأوروبية، وعندئذ ظهر نوع آخر من الألفاظ مثل burgo أى برج، وظهر هذا الشكل في أول الأمر على طول الطريق إلى شنت ياقب أو سانتياغو Santiago.

نستطيع أن نؤكد إذن أن عنصر المستعربين Mozárabe اكتسب أهمية جوهرية إبان القرون الأولى من عمر مملكة ليون. وبمرور الزمن أخذ المستعربون في الذوبان مع بقية المواطنين المسيحيين بصورة يصعب تمييزها، كما بدلت عملية إحلال عناصر أوروبية استندمت من بلدان أوروبية أخرى (وخاصة من فرنسا بناء على أمر كلوني Cluny)، أو موظفين من اليهود الذين وفدوا من الأندلس محل الموظفين من المستعربين في البلاط.

## طليطلة :

استولى ألفونسو السادس على مدينة طليطلة في عام ١٠٨٥م، وهذه المدينة جديرة باهتمام خاص، فقد كانت تضم بين سكانها عددًا كبيرًا من المستعربين Mozárabe. ولم تتأثر هذه الفئة بوجود رهبان دير كلوني Cluny المكثف فحسب، بل لأن أهمية جموع المستعربين فقدوا أهميتهم وفاعليتهم في نظر القشتاليين. علمًا بأن المستعربين كانوا هم أكثر العناصر الديموغرافية أهمية في طليطلة، وأهم علامات تفرد المدينة وتميزها حتى القرن الثالث عشر. ثم انضم إلى طائفة المستعربين فرقة أخرى أطلق عليهم اسم المستعربين الجدد neomozárabes، وهم المسلمون الذين تحولوا بعد الغزو إلى المسيحية. حافظ المستعربون على استخدام اللغة العربية، سواء كان ذلك حديثًا أو كتابة على مدى زمني طويل، وهذا ما يتأكد من خلال ١٢٠٠ سند شرعي (تم نشرها حتى الآن) باللغة العربية، يرجع تاريخ توثيقها إلى أواخر القرن الثالث عشر. وتدل هذه الوثائق العربية والتي تمت صياغتها بلهجة عامية على استخدام اللغة العربية في التخاطب في الفترة نفسها .

هاجر من طليطلة مستعربون قاصدين أراغون Aragon ، حيث منحهم ألفونسو الأول امتيازًا عام ١١٢٦، كما اتجهوا إلى



الشرق Levant، وخاصة إلى مملكة فالنسيا Valencia، بعد استيلاء السيد El Cid عليها في عقد التمتعيات . وكان السيد نفسه من المستعربين الجدد قبل الاستيلاء على المدينة أى بوصفه مسيحياً مستعرباً، في مملكة سرقسطة Zaragoza المسلمة. في ذلك التاريخ قرر غريغوريو السابع Gregorio VII ، في محاولة منه، لتركيز سيطرة روما على الحياة الكنسية، وتوحيد طقوس الصلاة، واقتلاع ما أسماه بالخرافة الطليطية، وهي لم تكن سوى مجرد صلاة وترانيم مستعربة، مشتقة من الطقوس القوطية القديمة. وقد أعيدت هذه الشعيرة في عام ١٥٠٠ على يد الكاردينال ثيسنيروس Cisneros، وهذا دليل واضح على وجود جماعات احتفظت بذكرى هويتها المستعربة حتى ذلك الحين في طليطلة.

### المغرب :

كان عام ١١٢٥ عامًا حاسمًا بالنسبة لوضع الجاليات المسيحية في الأندلس. في هذا العام، وصل ملك أراغون Aragón، الملك ألفونسو الأول المحارب على رأس جيشه إلى غرناطة. إلا أن حملته العسكرية تلك باءت بالفشل، فاضطر إلى الانسحاب. وترتب على هذه الهزيمة أن اضطر من انضم إليه من المسيحيين إلى الهجرة نحو الشمال. وقررت السلطات المسلمة (المرابطون في ذلك الحين) من

جانبها إبعاد المسيحيين المقيمين على أرضهم، والذين نقضوا عهد النعمة، من الأندلس إلى المغرب، وذلك بدعوى مساندتهم لعدو خارجي. وقد تمت عملية الإبعاد الأولى عام ١١٢٦، ونفذت عملية أخرى عام ١١٣٨. استوطن هؤلاء المسيحيون في مدن مثل مكناس، أو سلا، أو فاس، أو مراكش، وصرح لهم ببناء كنيسة في الأخيرة. ثم انضم عدد كبير من هؤلاء المستعربين إلى صفوف فرق جيش المرتزة المسيحيين، التي شكلها المرابطون في المغرب. وهؤلاء المسيحيون الذين أبعدوا كانوا قد اختاروا ألا يتبعوا ألفونسو المحارب لدى عودته نحو الشمال المسيحي، مفضلين البقاء في المناطق الإسلامية التي ألفوا الحياة بها. وثمة عدد كبير آخر من المسيحيين دخل في الدين الإسلامي. هذا كله أدى إلى غلو الأندلس من المسيحيين في أوائل القرن الثالث عشر، عدا المرتزة، أو الأسرى، أو التجار القادمين من مناطق أخرى، أي المسيحيين الغرباء، وهم ما يمكن أن نطلق عليهم اسم المستعربين الجدد. ونكمن أهمية هذه المسألة في أنها تعني أنه لم يكن في المناطق الأندلسية التي تم الاستيلاء عليها في القرن الثالث عشر سكان مسيحيون ترجع أصولهم إلى فترة ما قبل الغزو الإسلامي، وفي عهد قريب ادعت بعض الجماعات القومية وجود مواطنين مستعربين في فالنسيا عندما استولى عليها خليفي الأول ملك أراغون Aragón، وأن هذا

يعنى أيضا أن لغة فالنسيا (المشتقة من الرومانثيرو التى يتحدث بها هؤلاء المستعربون)، إما هى لغة مختلفة عن اللغة القطلونية، التى أدخلت عن طريق الغزاة الأراغونيين - القطلونيين. ولعل إثبات هذه النقطة لا يتيسر بما لدينا من دلائل أو مؤشرات تاريخية.

لقد لختفى وجود المسيحيين الذين ترجع أصولهم إلى فترة ما قبل دخول الإسلام إلى الأندلس، اعتباراً من أوائل القرن الثانى عشر. أما بالنسبة لليهود، فالوضع يختلف.



## اليهود

مر اليهود بظروف حياتية غاية في القسوة إبان العصر القوطى، مما جعلهم يستقبلون وصول المسلمين إلى أرض شبه الجزيرة بارتياح منقطع النظير، متوسمين في ذلك متفمنا لتحسين أحوالهم، فسرعان ما انخرطوا في الثقافة العربية. وقد شهد يهود الأندلس، بما أسهموا به من مشاركة تامة في الثقافة العربية الإسلامية قرناً ذهبياً حقيقياً في عصر الخلافة الأموية، وعصر ملوك الطوائف، فيما يتعلق بالفكر والثقافة . ويعتبر هذا القرن صفحة من أنصح صفحات تاريخ اليهودية في العصور الوسطى. ولقد كان لليهود الأندلس دور غاية في الأهمية في نقل معارف الأندلس إلى أوروبا. لم تحاصرهم قيود مهنية، طبقاً للشريعة الإسلامية (خلافًا لما كان يحدث لهم، كما سنرى، في المناطق المسيحية) حتى بلغوا شأنًا عظيمًا في عصر الخلافة الأموية وعصر ملوك الطوائف فيما بين القرنين التاسع والحادى عشر، سواء كان ذلك فى الجوانب الاجتماعية أو الاقتصادية أو الثقافية. ونظرًا لأن الثقافة الإسلامية الرفيعة، وخاصة فيما يتعلق بالجانب العلمى (الفلك، والرياضيات،

(والطب)، لم تكن حكرًا في الأندلس على الفئات الكنسية، كما كان الحال في المناطق المسيحية المعاصرة، تمكن اليهود من المشاركة فيها، خاصة وأنهم أصبحوا مستوعبين للثقافة العربية بشكل كامل.

لا يستطيع أحد أن ينكر مدى الأهمية الثقافية لعطاء يهود الأندلس المعربين هؤلاء، في طليطلة بوجه خاص، من خلال ما يعرف بمدرسة المترجمين؛ فقد كانوا هم المنفذ الذي عادت عبره إلى أوروبا المعارف الكلاسيكية القديمة، وبخاصة المعارف اليونانية القديمة، بعد أن تاهت في أوروبا العصور الوسطى، لكي تتمخض عما أطلق عليه اسم نهضة القرن الثاني عشر. ولكنني لن أتمرض هنا لهذا الموضوع، نظرًا لأنه عولج في كتاب ماريبيل فييرو M. Fierro الذي سبقت الإشارة إليه مرارًا، علمًا بأنني أدرك جيدًا أن إغفال الظاهرة الثقافية التي رسمها يهود الأندلس في قشتالة إبان العصور الوسطى (وخاصة في طليطلة) يعني تهميش واحد من أهم وأبرز المظاهر، بل وربما يكون المظهر الوحيد الذي يتعلق بتاريخ أوروبا.

#### قشتالة :

كان هناك في شمال شبه الجزيرة الإيبيرية بعض الجاليات اليهودية الصغيرة والمتناثرة، قبل أن يبدأ استيلاء المسيحيين على

مناطق تابعة للمسلمين. ولم يكن إغلاق الحدود مطروحاً كما حدث بالنسبة للمستعربين، فلم تنقطع العلاقات وعمليات التبادل بين مختلف الجاليات ونظيرتها في الجنوب، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار أن سرقسطة Zaragoza، وتوديلا Tudela، وطليطلة، المتقاربة فيما بينها كانت تعد من أهم مراكز الثقافة اليهودية العربية. ولقد توفرت لدينا البراهين التي تؤكد إجراء الاتصالات بين يهود الجنوب ويهود الشمال بفضل الرحلة التي قام بها الطبيب والسفير اليهودي حسداى ابن سبروت Hasday Ibn Saprut، الذي لوفد من قرطبة إلى نبرة Navarra وليون León.

ولكى نعرض الحديث عن سكان قشتالة من اليهود، يتعين أن نرجع إلى غزو المسيحيين لطليطلة، فلم ينضم عدد كبير من السكان اليهود آنذاك فحسب، بل إن تلك الحملة توافقت زمنياً مع بداية نزوحهم من الأندلس، حيث تدفقت موجات من اليهود بعد استيلاء المرابطين عليها أولاً، ثم بعد غزو الموحيدين لتلك المناطق. اتسم حكم هاتين الدولتين الناشئتين في بلاد البربر، والذي تأسس على المنطلق الديني، بالشدّة والتمصب، وترتب على ذلك تدهور أحوال الأقليات الدينية في الأندلس.

احتل اليهود مناصب مهمة في بلاط المسلمين، كالأطباء (تماماً كما حدث في بلاط كل من قشتالة وأراغون)، فقد كان لدور طبيب

البلاط نفوذ كبير نظراً لقربه من الحاكم، فغالباً ما كان يقوم بدور المستشار بل وبمهام السفير (كما حدث بالنسبة لحسداى بن سبروت، طبيب عبد الرحمن الثالث، والذي أشرنا إليه سابقاً). تلك المهام أتاح لعدد منهم فرصة المشاركة فى العمل العلم والسياسى فى بلاد الأندلس. وإبان حكم ملوك الطوائف كان دور الطبيب أكثر تميزاً، وخاصة فى سرقسطة وإشبيلية والمرية *Almería*، حيث كانت بعض الأسر اليهودية من رجال الحاشية تضم بين أفرادها وزراء بارزين. ويتمثل أكبر مثل فى هذا السياق فى عائلة بنى ناغريلا *Nagrella* فى غرناطة، التى كان يوسف هانجيد أحد أفرادها، وزيراً قوياً فوق العادة، وصفه أعداؤه بأنه كان أقوى من السلطان نفسه. استطاع هذا الوزير بما كان يتمتع به من سلطات أن يخدم تمرذا شعبياً عام ١٠٦٦ قتل فيه ابن ناغريلا مع عدد كبير من يهود غرناطة. وكان منهم أيضاً يوكوتل بن حسن *Yaquiel Ibn Hasan* من سرقسطة، الذى مات مئة بشعة. ولقد كان من الأسباب التى أدت إلى فسخ عهد الذمة تكليف أفراد من اليهود أو للمسيحيين بتطبيق مقتضيات السلطة على المسلمين، غير أن تلك الفتن أو حركات التمرد كانت تصطبغ بموانع تمثلت فى كبار الموظفين من لليهود المسؤولين فى الغالب عن المالية والضرائب، ومثل هذه الوظائف تقتصر كثيراً إلى الشعبية. ولقد تسببت حركات التمرد ضد كبار المسؤولين اليهود (واتسحب ذلك أيضاً على بقية السكان اليهود) فى موجات الهجرة الأولى نحو المناطق



المسيحية . وقد ازداد الوضع صعباً بتولى المرابطين زمام الحكم، حيث قاموا بفرض التزمّلات ضريبة خطيرة للغاية. حدثت تلك الهجرة عندما هاجر الكاتب والمفكر الشهير موسى بن عزرا، الذى هاجر مضطراً، وكان من أسرة ذات شأن كبير فى غرناطة، وأشار فى كتاباته إلى مدى ما لفتابه من كآبة إزاء ظروف الحياة المعيشية والاجتماعية والفكرية التى واجهها بين مسيحيي الشمال<sup>(٩)</sup>، الذين وصفهم بالفاظ غاية فى الخسونة.

كانت أبرز هذه الهجرات وأكثرها أهمية تلك التى حدثت فى عام ١١٤٦، وهذا التاريخ يعنى بداية عصر دولة الموحدين فى الأندلس. أمّعت هذه الدولة فى اضطهاد الأتليات الدينية، بل وصل بها الأمر إلى إجبار تلك الأتليات على اعتناق الدين الإسلامى خلال سنوات حكمها الأولى. ليس ثمة ما يؤكد من معلومات حول الظروف التى تم فيها ذلك التحول الدينى القسرى، كما لا تتوفر المعلومات التى تتحدث عن الفترة التى سادت فيها تلك الظروف (مما كان له أثر فى إلغاء عهد الذمة، ويخالف بالتالى - نصوص الشريعة الإسلامية) فالمصادر العربية لم تتعرض لهذا الموضوع إلا بمجرد

---

(٩) يرى اليهود أن معاملة المسلمين لهم كفت أفضل كثيراً من معاملة المسيحيين . انظر تيسين الإسلام والغرب ترجمة مدوح البستوى، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المشروع القومى لترجمة المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥. (المراجع)

التلميح، ربما لأن إلغاء عهد النعمة كان مثاراً لجدل عميق. على أية حال فإنه سواء كان الاضطهاد أو التحول الديني، يبدو أنهما استغرقا فترة زمنية وجيزة ، استعاد بعدها من تحول عن دينه قسراً، حرية العودة إلى ديانته الأصلية. فقد استردت الأقليات اليهودية أوضاعها في عهد الخلفاء الموحدين التاليين ، ومن جاء بعدهم (بنو مرين في المغرب، وبنو نصر في الأندلس)، بل ونقلوا مراكز مهمة في الحياة العامة وفي البلاط. ويبدو أن الإجراءات التعسفية تلك لم تدخل في حيز التطبيق بشكل متساو في المناطق المختلفة التابعة للموحدين ؛ مما أرغم الفيلسوف اليهودي القرطبي الشهير يوسف بن ميمون، على اعتناق الدين الإسلامي مثلاً، وفضل أن يهاجر إلى مدينة فاس، وكانت إحدى المدن المهمة في بلاد الموحدين. وتكاد المصادر العربية تخلو من معلومات حول هذه الأحداث، بينما تناولتها المصادر اليهودية في صيغ أدبية (شعرية في الغالب) يصعب التعامل معها على أنها مصادر تاريخية، ولكن ثمة حدث موثق يتمثل في أفواج المهاجرين الذين نزحوا من الأندلس متدفقين على المناطق الإسلامية، بسبب تلك الأحداث. وقد كان أحد العاملين اليهود في بلاط الملك ألفونسو السادس ملك قشتالة، ويدعى يهوذا بن عزرا (وكان ينتمي إلى أسرة غرناطية سبق أن ألحقنا إليها) يستقبل في قلعة، قلعة رباح أو كلاترابا Calatrava لليهود الفارين من الأندلس.

تلك هي الحقبة التي بدأ فيها الأطباء ورجال الإدارة اليهود يكتبون أهمية في بلاط قشتالة. فقد كان ألفونسو السادس يشجع المهاجرين من اليهود الوافدين من الأندلس ويرحب بهم، واستعان بعدد منهم بعد عام من الغزو في مهام إلى بلاط كل من إشبيلية وفالنسيا، لتحصيل الضرائب المستحقة عليهما. ومن هنا أخذ وضع اليهود يتنامى في إدارة شئون البلاد؛ مما أثار حفيظة البابا غريغوريو السابع Gregorio VII فدعا إلى عدم تعيين اليهود في وظائف تقتضى التحكم في مسيحيين. ولعل من المناصب التي اكتسبت أهمية خاصة ذلك المنصب الذى شغله ر. يوسف هاناس فروزييل R. Yosef Hanasi Ferruziel ، المعروف بـ ثيديلو Cidiello، بوصفه طبيبنا شخصيا للملك. وهنا نركز ثانية على مدى الأهمية السياسية الكبيرة التي تميز بها منصب الطبيب في البلاط إبان العصور الوسطى. كذلك شغل ابن أخيه ر. شلومو فيروزييل R. Selomo Ferruziedl - وكان قد سبق أن أوفد في مهمة دبلوماسية من قشتالة إلى أراغون Aragón - منصبًا مماثلًا.

ضم بلاط ملوك قشتالة، في عهود ألفونسو السادس، وألفونسو السابع، وألفونسو الثامن، عددًا من اليهود اعتبارًا من أواخر القرن الحادى عشر، وطوال القرن الثانى عشر. واكتسبت وظائف المشرفين، وأمناء الصندوق، والقائمين على بيت المال والشئون

المالية الملكية، وضعًا خاصًا وكان نظام الاستثمار المالي، والتقنيات الخاصة بالأنظمة الإدارية المتقدمة عملاً واحدًا من الناحية العملية في ذلك الحين. ونأمل أن تفصح دراسات جديدة عن كيفية انتشار الإجراءات الإدارية الإسلامية في بقية البلدان الأوروبية عبر شبه الجزيرة، وعندئذ سوف يتمنى لنا الوقوف على مدى إسهام المشرفين اليهود في قسّالة في تحقيق هذا التقدم.

لا ينبغي أن يدفعنا المركز الذي حظى به رجال البلاط هؤلاء - التقدير الذي كان يتمتع به الأطباء، والمترجمون، ورجال العلم- أن يدفعنا إلى استقراء خاطئ لأوضاع الأقلية اليهودية المعاصرة في ذلك الوقت، فكما حدث مع المدجنين Mudéjares، وعندما تم إقرار الامتيازات التي تمتع بها القشتاليون، والفرنجة المقيمون في طليطلة، بدأت مرحلة تدهور أوضاع اليهود.

كان أمن اليهود مرهونًا كلية بما يراه الملك، وبمدى ما يتمتع به ضباطه من نفوذ وتأثير، وكان وضع هؤلاء الضباط مرهونًا أيضًا بمشئنة الملك. السواد الأعظم من يهود قسّالة كان عبارة عن جماعات صغيرة من الحرفيين للحضريين ومن سكان متواضعين، يعيشون في ظروف بدائية يحاصرهم الفقر. ولما مات ألفونسو السادس عام ١١٠٩، اندلعت حركة تمرد شاملة فجرها المسيحيون في

طليلة شملت البلدان المحيطة بمدينة بورغوس Burgos ومملكة ليون قاطبة، كان من أهم نتائجها تخريب ممتلكات الملك، كما تعرضت فيها الأحياء والمناطق اليهودية لعمليات السلب والنهب. وممرت سنوات طويلة حتى انتهى الملك ألفونسو السابع إلى اتفاق مع سكان المناطق التي شهدت تلك الاضطرابات، أصدر بمقتضاه مرسومًا بإسقاط جميع للغرامات وإلغاء التعويضات المستحقة لمن قُتل من اليهود. وبذلك تكون الأحياء اليهودية هي التي دفعت ثمن التمرد على السلطة الملكية.

بدأت أوضح مظاهر تمييز البارزين من اليهود في الوقت نفسه الذي فرضت فيه تشريعات متشددة ضد الأقلية اليهودية في عهد الملك ألفونسو العاشر، الذي ازدهرت في عهده، وتحت رعايته، ما أطلق عليها اسم مدرسة المترجمين في طليطة. فقد حظى العلماء اليهود في عهده بتقدير لا مثيل له بالنسبة لحكام عصره، كما ألحق عددًا من خدمه ليضغلوا المناصب في السياسة والإدارة المالية. كل ما ذكر يتناقض مع تشريعته تجاه اليهود والمسلمين. ومما لا شك فيه أن التمرد الذي تزعمه المدجنون في وادي نهر الوادي الكبير كان له دور في تلك التشريعات . إلا أننا لا نعرف عن هذا التمرد إلا النزر اليسير . لقد بدأ نفوذ الكنيسة واضحًا في تلك التشريعات الجديدة، كما تبين أيضًا أنها تتطوى على محاولة لتخفيض الامتيازات المخولة

للإهود. وترتب على ذلك إرغام الإهود على دفع ضريبة العشور المستحقة على أراضيهم للكنيسة، كما فرض عليهم ارتداء ملابس خاصة، ووضع علامة مميزة عليها، وعموماً فقد قلص ألفونسو العاشر حقوق كل من الإهود والمسلمين المدنيّة، وخاصة خلال الفترة الأخيرة من حكمه.

لم تختلف علاقة الأساقفة وكبار النبلاء بالإهود عن علاقة الملك بهم بشكل عام. فقد كان لخوان، أسقف بورغوس، ومستشار فرناندو الثالث، علاقة بطبيب ورجال مال من الإهود، وجعل رئيس أساقفة جمعية رهبان سانتياغو Santiago إدارة الأراضي الخاصة بالجمعية في أيدي يهودية.

هناك نشاط مهني آخر تفوق فيه الإهود، وهو المتعلق بأعمال الترجمة (الترجمان، واشتقت منها أيضاً كلمة dragoman بالإنجليزية) فقد قاموا في مناسبات عديدة بدور سياسي مهم، عند صياغة الاتفاقيات ومعاهدات الإسلام<sup>(\*)</sup>. وهناك شخص يهودي من بلدة رونده Ronda، قام بدور المترجم من العربية أثناء عملية التفاوض التي انتهت باستسلام المدينة عام ١٤٨٥. وكان لدى آخر

---

(\*) للتعرف على دور الإهود في أعمال الترجمة وعند المصقات بين الممالك الإسلامية والممالك المسيحية انظر كتاب "بين الإسلام والغرب" ترجمة مدوح البستوى، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥. (المراجع)

سلاطين غرناطة أبى عبد الله مترجمان يهوديان (إلى الإسبانية) وهما إسحاق بردونييل Ysaque Perdoniel ، وصهره يهوذا Yuda. كان بلاط ملك قشتالة المتنقل دائماً حافلاً برجال مال ومفكرين من اليهود. وتعود رجال البلاط اليهودى على أسلوب حياة الفرسان، كما ارتبطوا بصداقات مع العاملين فى دوائر البلاد، وأيضا شاركوا فى النزاعات التى لم تتوقف من جانب المتطلعين إلى إنعامات ملكية. وتميز طابع علاقة لقطاب اليهود بإخوانهم فى الدين بالطابع نفسه الذى اتسمت به علاقات السادة الإقطاعيين بمن دونهم من الشعب. مما أثار كثيراً من الأحقاد والمنازعات والانقسامات الداخلية فى الأحياء اليهودية فى كل من قشتالة وأراغون.

### أراغون Aragón

كان اليهود فى أراغون أقل عدداً منهم فى قشتالة، على خلاف المدجنين ، وفى مناطق أراغون كان يتم ضم عدد من الجمعيات اليهودية كلما كان المسيحيون يستولون على المناطق الإسلامية . أهم تلك الجمعيات كانت فى تودىلا Tudela وسرقسطة (حيث حصل اليهود على امتيازات بهدف تشجيعهم على الإقامة هناك) وفى قلعة أيوب Calatayud وضمت هذه المدن عدداً من الأحياء اليهودية التى ازدهرت إبان للعصر الإسلامى. أضيف إلى هذه المدن مدينتى لاردة Lérida، وبرشلونة ، وكلاهما كانت تحت حماية القاج.

تمتع يهود أراغون بلزهي مراحل تاريخهم في عهد خايمي الأول Jaime I الذي جعل من القرن الثالث عشر عصراً ذهبياً لليهود في ظل التاج الأراغوني. فلما استولى هذا الملك على مدينة فالنسيا عام ١٢٣٨ (بعد أن تمكن المسلمون من استردادها بعد وفاة السيد El Cid) كان بين أحيائها حياً يهودياً مزدهراً بالسكان. غادر عدد من هؤلاء السكان قاصداً مملكة غرناطة أو الشمال الإفريقي، ولكن بقى قطاع كبير منهم في المدينة. حاول خايمي الأول اجتذاب يهود آخرين إلى المملكة، بل وسعى إلى اجتذاب اليهود المقيمين في شمال إفريقيا، لكي يشغلوا المناطق التي تركها المسلمون لدى مغادرتهم مملكة فالنسيا . وأدى ذلك إلى تولد أفواج لليهود في حماية التاج، وذلك بموجب العطايا ومنح الأراضي والإعفاءات والوظائف التي خصصها الملك لليهود القادمين، بهدف إعادة تعمير المنطقة. كذلك اتخذ خايمي الأول إجراءات تكفل لليهود حرية العمل بالتجارة، كما أطلق لهم حرية التنقل في جميع أنحاء المملكة ومن مكان إلى آخر، دون تحمل أى أعباء أو مكوس. ثم صرح لهم بدرو الثالث عام ١٢٨٠ بممارسة الأنشطة للتجارة مع المسيحيين والمسلمين . ومارس يهود أراغون وفالنسيا التجارة مع البرتغال عبر الطرق البحرية وعلى متن السفن البرتغالية، كما اشتغلوا بالتجارة أيضاً مع دول شمال إفريقيا، وخاصة تجار الأحياء اليهودية في مدن ساغونتو



Sagunto، وشاطبة Játiva ، وكان هؤلاء التجار معاملات تجارية مع الجزائر وتونس عن طريق وسطاء من يهود مايوركا. وامتدت حركة التجار اليهود في فالنسيا - إلى مدن تلمسان Tremecén وبجاية Bujía في الجزائر، وغالبًا ما تمت صفقات التجار عن طريق العلاقات الشخصية والعائلية بمعرفة يهود الأندلسيين سبق أن أقاموا في تلك المناطق . كذلك أجرى يهود الأندلس علاقات تجارية مع تجار من جنوة مقيمين في مملكة غرناطة، وكان هؤلاء التجار يقومون بعمليات تجارية مع شمال إفريقيا وأراغون أيضًا، مما ساعدهم أيضًا على مد جسور العلاقات الثقافية. وفي أوائل القرن الرابع عشر سافر أحد مشاهير رجال الدين الأندلسيين (من مالقة بالتحديد) ويدعى جاييم بن هاشميلي بزيارة إلى الجزائر لإجراء مشاورات مع الحاخام الشهير شيمون ب. سماح، حاخام مدينة تلمسان Tremecén، وهو بدوره من أصل مايورقي، وكان لاستشارته القانونية وزنها في منطقة البحر المتوسط كلها.

كانت مهنة الطب، ومجال الإدارة، على رأس النشاط المهني لدى يهود أراغون، شأنهم في ذلك شأن يهود قشتالة . وقد شغل هؤلاء في مجال الإدارة وظائف خاصة بتقدير الضرائب وتحصيلها. كذلك تقلدوا المناصب التي تتطلب الإلمام باللغة العربية، وبخاصة وظيفة "الترجمان"، أي وظائف المترجمين والسفراء لدى المناطق

الإسلامية، والقائمين بالتفاوض للوصول إلى اتفاقيات ومعاهدات تجارية أو سياسية مع المناطق الإسلامية المجاورة، إما مع مملكة غرناطة وإما مع منطقة الساحل الجنوبي للبحر المتوسط. وكان لـخايمي الأول Jaime I نفسه المترجم باهييل Bahiel القسطنطيني، الذي قام بدور المترجم والوسيط في مسيرة الاستيلاء على ميورقه عام ١٢٢٩، وفي عملية الاستيلاء على فالنسيا عام ١٢٣٨م، كما أجرى مفاوضات مع حكام مدينة شاطبة حول استسلامها أثناء الحصار الذي فرضه الأراغونيون عليها. كذلك تولى أشتروك بونسنيور Astruc Bonsenyor هو وأولاده بون دافيد Bondavid ويافوده Yafuda مهمة التفاوض بشأن استسلام مدينة إيلشي Elche، ومدينة مرسية أما الملك بدور الثالث، فقد كان في بلاطه يهودى من مدينة فالنسيا يدعى صمويل بن مناسي Abenmanasse وهو الذى رافق الملك فى حملاته على تونس وصقلية. هذا وقد أوفد ابن دافيد إلى مصر عام ١٢٨٩ سفيراً لملك أراغون ألفونسو<sup>(٥)</sup> Alfonso El Liberal.

هناك يهود أيضاً اشتغلوا بشئون المال والإدارة العامة، كذلك

---

(٥) العلاقات بين إسبانيا المسيحية ومصر فى عصورها المختلفة من الموضوعات المهمة التى يلقى القوام بدرستها. هناك دراسات بالعلم عن علاقة مصر المملوكية بملكة أراغون فيرديناند سوط غرناطة الإسلامية. (المراجع)

تولى موظفون يهود شئون جمعيات المسلمين فى تلك المناطق من المملكة، والتي لم يكن سكانها يتحدثون سوى اللغة العربية . وفى عام ١٢٨٣ حدثت تعطفة سياسية من جانب التاج الأراغونى إزاء اليهود، وصلت إلى إقامة حواجز شديدة بين التجمعات، وبصفة خاصة ما تقرر بشأن منع لليهود من تولى مهام الوظائف العامة.

وأخيراً هناك ظاهرة تجدر الإشارة إليها وإن كانت هامشية ، فثمة معلومات موثقة تحدث عن إقبال تلقائى من قبل اليهود على اعتناق الإسلام فى غضون القرن الثالث عشر وفى مطلع القرن الرابع عشر فى أنحاء مملكة أراغون، ووصل الأمر إلى حد المشكلة لدى السلطات المسيحية فى المملكة. ومن المحتمل أن يكون هؤلاء من اليهود الذين قدموا من الأندلس ممن كانوا قد بقوا فى المناطق المسيحية أو ممن هاجروا إلى هناك نتيجة للامتيازات والعطايا التى منحها خايمى الأول، ثم أثروا التكيف مع طوائف المدجنين نظراً لتشبعهم بالثقافة العربية الإسلامية. وهذه الظاهرة مشابهة لما سبق أن ألمحنا إليه عند حديثنا عن المستعربين للجدد.

تبين هذه الأحداث مدى تغير نسبة العناصر المختلفة التى تدخل فى تكوين هوية الفرد أو الجماعة من عناصر دينية وثقافية ولغوية، وذلك وفقاً للظروف التى تحيط به عندما يكون فى وضع حدودى دائم.

لقد أتاحت ظروف النظام والمجتمع القسطنطيني الخاصة الفرصة أمام اليهود لكي يتولوا بعض المناصب المهمة خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر، بينما كان ذلك مرفوضاً في مملكة أراغون المجاورة اعتباراً من أواخر القرن الثالث عشر. ففي قسطنالة حدث امتزاج بين تقاليد البلاط لدى أمراء الأندلس، وطبيعة النظام الزراعي الإقطاعي، وبين مبادئ الورع المسيحية، ومن هنا كان التشابك والتناقض في كثير من الأوضاع التي نعرض لها. ولكن، وعلى أية حال، وهذا ما سوف نستقرنه في الفصل التالي، فإن المسيحية أصبحت هي الديانة السائدة خلال القرن الثالث عشر، وتؤكد رسوخها أمام الإسلام واليهودية، وقد تم استبعاد هاتين الديانتين بكل الوسائل بدءاً من التشريعات وحتى الصدام المسلح. وباتساع محيط العالم المسيحي اتسعت آفاقه، واتسع مجال اتصاله بالإسلام، وهو ما تجلّى في عدة مجالات، منها ترجمة مراجع علمية وفلسفية، قام اليهود بدور كبير فيها. وخلال القرن الثالث عشر قام ممثلون للكنيسة بتنظيم حلقات جدل ديني مع ممثلين للطوائف اليهودية، فرضوا عليهم أثناءها حضور الخطب والمواعظ الدينية. وقد أدت الأوامر التي صدرت إلى القِيام بحملات لتقصير أعداد كبيرة من اليهود والمسلمين، مما دعا إلى إنشاء أقسام لدراسة اللغتين العربية والعبرية وتعليمهما. وسوف تأخذ هذه المسيرة في الانعطاف نحو

الأصولية، نتيجة لفشل عمليات التنصير، إلى أن بلغت الأزمة ذروتها في القرن الرابع عشر، كما تمثلت في الحملات التبشيرية التي تزعمها بيثنتي فيرير Vicente Ferrer، والتي أدت إلى تفجر اضطرابات خطيرة، تعرضت فيها الأحياء اليهودية للسلب والنهب، كما ارتكبت فيها المذابح. وهذا اضطر عدد كبير من اليهود إلى التنصر.



## المدجنون

ظهر المدجنون في العصور الوسطى المتقدمة، وقد اختلطوا بالسكان المسيحيين العربيين بصورة يصعب فيها التمييز بينهم. والمدجنون هم المسلمون الذين بقوا في المناطق المسيحية التي استولى المسيحيون عليها، أو ممن وفدوا إلى مناطق مسيحية واستقروا بها إما باعتبارهم أسرى حرب، وإما بصفقتهم مهاجرين وفدوا من جنوب شبه الجزيرة، بسبب الاضطرابات السياسية العميقة هناك، أو هربًا من ويلات الحروب الأهلية، أو نتيجة للظروف الاقتصادية القاسية. أقام المدجنون في المناطق المسيحية في نطاق تجمعات مختلفة وفق تنظيم خاص بهم، تحكمهم سلطاتهم وقانونهم الخاص. ومرت المدجنون على مر العصور بظروف تعرضوا فيها لعمليات اضطهاد متصاعدة استهدفت أحد أمرين إما الاندماج وإما الرحيل.

والمدجنون هم أول نواة مهمة من السكان المقيمين في مناطق لا تحكمها سلطة سياسية مسلمة، وهذا ما يضمن اهتمامًا خاصًا على

أساليب تنظيمهم، وطرق معيشتهم داخل التجمعات الخاصة بهم. ولقد استخدمنا لفظ " الجماعة " aljama للإشارة إلى الفريقين. والجماعة هي المجلس المشكل من كبار طائفة المدجنين (كما هو الحال بالنسبة لليهود) باعتبارها المؤسسة المكلفة بإدارة شئون الجماعة، والمسئولة عن تنفيذ القانون الإسلامى، إضافة إلى الاضطلاع بمهمة الاتصال بالسلطات المسيحية. وكانت تلك "الجماعات" مجرد رمز لبقاء الإسلام فى المناطق المسيحية، وقامت بأداء بعض المهام التى كانت تمارسها السلطة السياسية فى المناطق الإسلامية، مثال ذلك المحافظة على العادات والقوانين، والسير فى سبيل الحفاظ على العقيدة، والالتزم بتنفيذ التعاليم الدينية، وكذلك العمل على نقل المعارف. ويطلق لفظ "جماعة" أيضا على الطائفة بأكملها، وغالبا ما ورد لفظ "جماعة" فى المراجع والوثائق مثلاً ("جماعة" اليهود، أو "جماعة" المسلمين) على أنه مرادف لكلمة "حارة" أو "حارة اليهود"، أو "حارة المسلمين".

ذكرنا أن المدجنين هم أول جماعة مهمة وباستثناء صقلية، هم الطائفة الوحيدة حتى العصور الحديثة التى عاشت فى منطقة غير إسلامية. لذلك اصطدمت بمشاكل تمس وضعها الإسلامى، الأمر الذى أدى إلى إصدار مجموعة من الفتاوى والرؤى القانونية، امتد العمل ببعضها بناءً على طلب بعض الجماعات. على سبيل



المثال : هل يجوز أن يظل المرء مسلماً وهو يعيش في بلاد الكفار، أى دار الحرب؟ لقد عادت مثل تلك الفتاوى تحظى باهتمام غير مألوف تجاه ظاهرة الإسلام الأوروبى الجديد الذى يُرى فى المدجنين مثلاً.

قسم الفقيه ابن ربيع، وهو أحد فقهاء القرن الرابع عشر، المدجنين إلى ثلاث فئات : أقلية مبعثرة، استقرت في بلد مسيحي، وفئة تركزت رغم أقليتها، في تجمعات داخل أحياء خاصة بها، في معزل عن الكفار، أما الفئة الثالثة فهي أغلبية أقامت في بلد يسيطر المسيحيون على حصونه للتحكم عسكرياً في البلاد.. ويرى الفقيه المذكور أن أسوأ هذه الفئات الثلاث حالاً هي الفئة الأولى (وأنه كان يتمين على من يعيش في هذه الظروف أن يهاجر مهما كلفه الأمر)، وأن أفضلها حالاً هي الفئة الثالثة. وسوف يتبين لنا وجود الفئات الثلاث في مختلف المناطق التي عاش فيها المدجنون، كما سيوضح أن خيوط الهجرة لم تنقطع طوال تلك الفترة، وخاصة في أواخر العصور الوسطى.

خلت وثائق العصور الوسطى من كلمة مدجن Mudéjar، حتى منتصف القرن الخامس عشر، فكلمة Mudéjar بالإسبانية تقابلها Mudeixar بلغة قطلونية أو Mudéjar، وهي مشتقة من الكلمة

العربية مُدَجَّن، أى "الخاضع"، وهذا هو المعنى الوارد فى المصادر العربية. وأطلق اسم مورو Moro على المسلم قبل حلول القرن الخامس عشر، وMoro بالإسبانية، و Mauri باللاتينية، وأثناء العصور الوسطى وما بعدها كانت كلمة Sarrahin، أو Sarrins أو Sarracenos تعادل كلمة مسلمين وذلك فى المصادر القطلونية، وعرفوا فى مصادر أراغون Aragon، على أنهم Moro De Paz ، أى مسلمو السلام، وذلك للتمييز بينهم وبين من لم يندمج منهم فى المجتمع المسيحى بموجب اتفاقات أبرمت باعتبارهم أسرى حرب أو عبيد.

من الصعب الإلمام بمجمل قضية المدجنين. فهم لم يتطوروا بمرور الزمن فحسب، بل إنهم اكتسبوا خصائص متنوعة للغاية طبقاً لظروف الممالك التى عاشوا فيها، بسبب اختلاف ظروف العمليات العسكرية، وخاصة بسبب التباين التشريعى فى العصور الوسطى، أو على ضوء خصوصية مختلف المزايا المحلية، أو نتيجة لامتيازات التى تمنحها مختلف المدن. إن الاختلافات كبيرة أيضاً فى مختلف المناطق، فى نواح عدة تبدأ من الاختلافات الديمغرافية، وحتى مستوى الإلمام بمستوى الثقافة العربية الإسلامية لدى المدجنين فى المناطق المختلفة. فعلى سبيل المثال لم تتجاوز نسبة المدجنين فى قشتالة خمسة بالمائة من إجمالى السكان فى نهاية العصور الوسطى،

وكانت في أراغون ٢٠ بالمائة. أيضا أخذ استخدام اللغة العربية يتراجع في كل من قشتالة وأراغون، إذ اقتصرت الاستخدام في البداية على الجوانب القانونية والدينية، ثم اقتصرت في نطاق محدود للغاية، حتى حلت اللغة الأكصيدو أو الأجمية Aljamia (كتابة اللغة الإسبانية بحروف عربية) فيما بعد محل اللغة العربية، وفي الوقت نفسه ظل استخدام العربية قائما في غرناطة وفالنسيا، تحريرا وشوفيا، إلى أن طرد الموريسكيون خلال الفترة من عام ١٦١٠ حتى عام ١٦١٤.

كان وضع المدجنين يأخذ في التدهور في أنحاء البلاد جميعها، وبلغ التدهور ذروته على أثر صدور مراسيم ملكية تقضى بالتحول الإجباري إلى المسيحية. وبالتالي أصبح المدجنون مسيحيين رسميا وإن كان قطاع كبير منهم كان يتظاهر بهذا التحول، وأطلق عليهم عندئذ اسم الموريسكيين أي أن الاختلاف بين المدجنين والموريسكيين إنما هو اختلاف قانوني منه المسيحيون، كان له تأثير جوهري على مدى تقدير الجهات الرسمية لديانة الموريسكيين. وقد اختلفت تواريخ ذلك التحول الإجباري بين مملكة وأخرى : في المناطق التابعة لتاج قشتالة عام ١٥٢٠، وفي نابارا Navarra عام ١٥١٢، وفي كل من أراغون وفالنسيا وقطالونيا عام ١٥٢٦.

جرت العادة عموماً، على تقسيم دراسة أوضاع المدجنين إلى أربعة أقسام : قسّاليين، وأراغونيين، وفالنسيين، وغرناطيين. وسوف أتاولهم هنا في إطار كتلتين: كتلة المناطق التابعة لتاج قشتالة، وكتلة المناطق الخاضعة لتاج أراغون.

### مملكة قشتالة :

كان المدجنون في قشتالة مجرد أقلية محدودة ومتفرقة، ومهمشة اجتماعياً، وفقيرة ثقافياً (نتيجة لنزوح النخبة وطبقة المثقفين منهم إلى المناطق الإسلامية في الجنوب)، كما كانت أصولهم غير مؤكدة، لدرجة أن بعض المؤرخين يشكون في إسهامهم في نقل الثقافة الأندلسية. ويرجع انخفاض عدد المدجنين في قشتالة جزئياً، إلى ظروف العمليات العسكرية للقشتالية، وما كان لها من دور في إصدار التشريعات الخاصة بهم. واقترن صدور تشريعات قشتالة بشأن المدجنين مع التشريعات الخاصة باليهود إلى حد كبير، وتطورتا بشكل متواز. أما المعلومات المتوفرة عن كلتا الطائفتين، فهي نادرة ومبعثرة للغاية طوال فترة ما قبل الاستيلاء على طليطلة عام ١٠٨٥. وإنه من الصعوبة بمكان أن نعد صورة كاملة للحياة الخاصة بكلتا الطائفتين حتى نهاية العصور الوسطى، حيث تيسرت الوثائق بوفرة. ولعل أكثر المعلومات وفرة تلك التي استخلصت من التشريعات،

سواء كانت صادرة عن السلطات الكنسية أو البلاط أو السلطات المحلية. ولكن هذه الوثائق وفرت معلومات نظرية لا تتفق دائما مع ما توفر لنا من معلومات استخلصت من مصادر أخرى، حول ممارساتهم وظروف حياتهم اليومية. ولما كانت للتشريعات مشتركة بصورة عامة بالنسبة للمدجنين واليهود، فلا ينبغي أن نتجاهل الاختلافات الكبيرة بين كلتا الأقليتين.

لاشك في أن عام ١٠٨٥ م يعتبر عاما محوريا. فقد ترتب على الاستيلاء على مملكة طليطلة ضم مناطق ذات كثافة سكانية عالية سواء من المسلمين أو اليهود أو المستعربين إلى الأراضي الإسبانية لأول مرة. وكان لهذا الحدث أهميته سواء على الوضع السكاني لهذه الأقلية أو على التشريعات التي صدرت بشأنها.

نصت وثيقة استسلام طليطلة على ضمان حرية انتقال المسلمين الراغبين في مغادرة المدينة، كما نصت على حماية أرواح من يرغب في البقاء وأموالهم وممتلكاتهم، بما في ذلك ملكية المساجد. ونصت فقط على أن يتم تسليم الأماكن الحصينة للمسيحيين. إلا أن هذه الشروط لم تنفذ من الناحية العملية، ففي أعقاب الغزوة المسيحية تم تعيين راهب من دير كلوني Cluny كبيرا لأساقفة طليطلة. وكان هذا القس ممن شاركوا في مجمع كليرمونت

Clermont الدينى، حيث نذر بأن يشارك فى الحروب الصليبية فى الأراضى المقدسة، ثم أعفاه البابا من الوفاء بنذره لكى يشترك فى الحرب ضد المسلمين فى شبه الجزيرة الإيبيرية. ولما كان هذا الأسقف من المقربين إلى الملكة تحين فرصة غياب الملك، وقام بمصادرة المسجد الكبير فى طليطلة عام ١١٠٢، وحوله إلى كاتدرائية. كان هذا العام ١١٠٢ - إضافة إلى الموافقة على امتيازات القشتاليين والفرنسيين عام ١١١٨ - بادرة لتكاسف للائحة القانونية الخاصة بالمدجنين القشتاليين. فقد أرغم المسلمون على مغادرة المدينة تدريجيا على مدى جيلين؛ فاتجه كثير منهم إلى مناطق شمال قشتالة. واعتنق الآخرون المسيحية، ثم اندمجوا مع سكان طليطلة من المستعربين، والمعربين- فى الأعماق، حيث نما بينهم تآلف تقافى.

سوف أحاول، فيما يلى ، الإجابة عن الأسئلة التالية حول المدجنين القشتاليين: من أين جاؤا ؟ وكم كان عددهم؟ وأين كانوا يعيشون؟ لقد أشرت فيما سبق ، فى معرض الحديث عن المستعربين، إلى بعض الآراء التى تدور حول أصول كلتا الأقليتين (اللذين لشكلان جزءا من السكان المسلمين الذين مكثوا فى أماكنهم على الرغم من تغيير الحدود)، وربما لا تلقى هذه الآراء إجماعا على إثرها أو قبولها. يرى لاديرو كيسادا Ladero Quesada وهو من كبار الباحثين المعنيين بالمدجنين فى مملكة قشتالة، أنه من غير المعقول أن يكون

المدجنون بقايا من المسلمين الذين ظلوا في مناطقهم بعد الغزو. ولكنه يؤكد عكس ذلك، ويقول إنهم من هجرات حديثة نسبياً، ومن المستحيل أن ترجع إلى القرن الثالث عشر، وأن للسواد الأعظم منهم انحدر من موجات الهجرة، من سكان مملكة طليطلة القديمة.

ويذهب مؤرخون آخرون إلى ما هو أبعد من ذلك، مثل مولينات Molinat، حيث يؤكدون أنه لم يبق أحد من المسلمين في مدينة طليطلة بعد الاستيلاء عليها، وأن من أعاد تعميرها بعد ذلك هم المدجنون الذين جاءوا من منطقة وادي نهر الوادي الكبير على أثر الغزوات التي شهدتها القرن الثالث عشر. إذن، مازال الأمر يحتاج إلى دراسات كثيرة حتى يمكن الاستقرار على رأي جدير بالتصديق.

أما في قشتالة - كما سوف يتبين لنا - على عكس ما هو عليه الحال في أراغون، فقد كانت الأحياء الإسلامية تتركز، بصورة تكاد تكون عامة، في النقاط العمرانية المهمة، حيث كان يسهل على أي مهني مدجن أن يستوطن، بل كان يحظى بموافقة المجالس المحلية، ولعل أكثر الحالات توثيقاً هو ما يتعلق بمدينة ألبلا Ávila التي ضمت بين سكانها أهم تجمع سكاني من المسلمين في مناطق شمالي قشتالة، إلا أن وجود المدجنين هناك، لم يكن موثقاً حتى القرن الثاني عشر، بعد مرور قرن من استيلاء المسيحيين على المدينة. وتكاد تكون هذه المدينة نموذجاً بالنسبة لموضوعنا. في أواخر العصور الوسطى

كانت تضم حيا يهوديا يستوعب نحو ألفى يهودى، ونحو ألف وثلاثمائة مدجن، بينما لا يكاد عدد السكان المسيحيين يتجاوز ثلاثة آلاف نسمة.

أما بالنسبة للعدد والتوزيع الجغرافى، سواء كان ذلك بالنسبة للمسلمين أو لليهود، فممكن الاستعانة بكتشوف توزيع الضرائب الإضافية، والتي كان يتعين على كلتا الجاليتين أو الطائفتين اللوفاة بتسديدها. تلك الضرائب كانت: الضريبة السنوية، وضريبة المنفعة ونصف المنفعة. أما الضريبة السنوية، أو الأساسية، فهي عبارة عن مبلغ سنوى يلتزم كل مسلم أو يهودى بتسديده تعبيراً عن الاعتراف بالسيادة الملكية، وبالحماية الخاصة التى يكفلها لهم الملك. أما ضريبة المنفعة ونصف المنفعة، فكان توزيعها كسابقتها طبقاً للوائح والإجراءات الضريبية، وكانت عبارة عن مبالغ غير عادية. وانتهى الأمر بها إلى تحويلها إلى ضريبة سنوية أيضاً. ومن هذا يتضح أن المسلمين واليهود كانوا يسددون للضرائب الأخرى التى كان يدفعها أى ممول ضرائبى قسطنطينى، بما فى ذلك ضريبة العشور التى كانت تسدد للكنيسة.

ويتبين من التقسيم الضريبى خلال الفترة ١٢٩٣-١٢٩٤ أن المدجنين تحملوا مبالغ كبيرة سددت للأبرشيات فى كل من :



بورغوس Burgos وفالنسيا Palencia وأبيلـا Avila وسيغوبيا Segovia، وهذا ما يعكس وجود عدد كبير من الأحياء التي يقطنها المسلمون.

فى عهد الملك إنريكي Enrique الثالث، ثم تـثـبـيـت المبالغ المفروضة على كل حى من أحياء المسلمين بالنسبة لضريبة الرعوس، وربما تكون هذه هى آخر مرة. ولكن أهم الوثائق حقيقة ترجع إلى ما بعد تلك الفترة، وهى خاصة بضريبة "المنفعة ونصف المنفعة" وقد قام لاديرو كيسادا Ladero بمتابعة هذه الضريبة عن أعوام ١٤٦٢-١٤٦٤، ١٥٠١، وكذلك الضرائب الخاصة بعام ١٤٩٥، ١٥٠١. وطبقاً لتلك الأخيرة، تبين وجود أحياء للمسلمين فى أبيلـا Ávila، وأريبالو Arévalo، وبلد الوليد Valladolid، وكانت هذه هى أكبر أحياء المسلمين فى المنطقة، تليها أحياء أخرى متوسطة فى بورغوس، وباركو دى أبيلـا Barco De Ávila، وبيدراھيتا Piedrahita. وأخيراً كانت هناك أحياء يهودية صغيرة فى كاريون Carrion، ومدينة الكامبو Medina Del Campo، وفالنسيا وساهاغون Sahagon، وسيبولبيده Sepúlveda. وفى المنطقة الشرقية للإقليم، على طول الحدود مع مملكة أراغون، كان الإشغال السكانى من جانب المدجنين أقل كثافة، ولكن هناك بعض الأحياء الإسلامية المهمة، أكبرها حى أغريدا Agreda، يتلوها حى أرتندا دى دويرو Aranda De

Duero، وأغويلار دى ثرييرا Aguilar De Cervera، وسريريه  
 Servern، ومدينة سلم Medina Celi، وبنياراده Peñarada، وسان  
 استييان دى غوميث San Estivan De Gomes، وأركوس Arcos  
 ومولينا دى أراغون Molina De Aragon، وسيغوينثا Siguenza.

ويمكن إثراء معلوماتنا عن المدجنين فى هذه المناطق أيضاً  
 عن طريق الشهادات التى توفرت لدينا حول الموريسكيين فى القرن  
 السادس عشر، منها سجل الحالة المدنية الخاص بالمسيحيين الجدد  
 فى سيغوبيا Segovia، لعام ١٥١٠ (أى بعد مرور ثمانى سنوات على  
 صدور المرسوم الذى يقضى بتحول المدجنين بمملكة قشتالة  
 الإجبارى إلى المسيحية) وأثناء تلك الفترة ظهرت مشكلة التمييز بين  
 الموريسكيين القدامى، أى المنحدرين من سلالة من تحول من  
 المدجنين المقيمين سلفاً بالمملكة، وبين المدجنين الغرناطيين، الذين  
 أخذوا يقدون بأعداد قليلة بعد الاستيلاء على مملكة غرناطة،  
 ثم أخذت أعدادهم فى الزيادة حتى أصبح ينفقهم فى فرق كبيرة  
 اعتباراً من اندلاع حرب البُشُرَات Alpujarras خلال الفترة من  
 ١٥٦٨ إلى ١٥٧٠. وأحدث هذا التدفق الغرناطى تحولاً فى الوضع  
 للسكانى السابق، كما تسبب فى تفجير منازعات أخذت تتصاعد بشكل  
 ملحوظ، ويمكن القول هنا إن المشكلة فى ذلك كانت غرناطية أكثر  
 منها موريسكية. وعلى أية حال، فإن هذا العامل يدفعنا إلى عدم

الاستعانة بمختلف مجالات الحالة المدنية الخاصة بموريسكيي النصف الثاني من القرن السادس عشر، ولا أن نأخذ بأعداد المطرودين، فيما عدا الحالات التي يحكيها للموريسكيون للقلمى، والغرناطيون، كل على حدة.

لنستعرض الآن جانبًا من الشروط القانونية التي طوقت كلاً من المدجنين واليهود، فقد سالت بينهما التشريعات القانونية تقريبًا، كما سبق أن ذكرنا. هناك علامة ثابتة وجوهرية ميزت هاتين الطائفتين، تمثلت في اعتبار كل منهما جسمًا غريبًا فى المجتمع القشتالي الذى تحدثنا عنه، أيضًا كانت التشريعات الخاصة بهما متغيرة، سواء بالنسبة للموقع الجغرافى، أو بالنسبة للزمن؛ فقد تغير عدد لا يحصى من القرارات التى تمسهما، بموجب قوانين محلية، وبناء على قرارات أصدرتها المجالس، وبموجب امتيازات ملكية.

وعموماً، نستطيع أن نؤكد أن لزمى فترة شهادتها الأقليات تقع من القرن التاسع إلى القرن الحادى عشر؛ ففى تلك الفترة كانت هناك حاجة إلى هذه الأقليات سواء فيما يتعلق بالجانب السكانى أو بجانب العمل. ثم شهدت تدهورًا كبيرًا فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر، ثم تدهورت أحوالها مرة أخرى خلال السنوات الأولى من القرن الخامس عشر، وخاصة للفترة من ١٤٠٨ إلى ١٤١٢. أيضًا

كانت أزهى عصور الأقليات في الأندلس، خلال الفترة من القرن التاسع حتى القرن الحادى عشر، ثم بدأ التدهور مع القرن الثانى عشر. فقد تزامن ظهور التشدد الدينى الذى شهدته المنطقتان، من جراء الإصلاح الكولونى Chury فى الشمال، والإصلاح الذى طبقه الموحدون فى الجنوب.

لمس المدجنون توازنًا فى وضعهم بصفة عامة فى اتفاقيات الاستسلام ومن خلال التشريعات الملكية، اعتبارًا من عهد ألفونسو العاشر، كما كفل الناج تأمين حياة المسلمين الأحرار، مع احتفاظهم بقوانينهم وتقاليدهم، على ألا يمارسوا شعائرهم الدينية علانية، وألا يهاجموا الديانة المسيحية. ذلك للتأمين الملكى لم ينطو بالفعل على مساواة المدجن الحر بالمسيحى فى النواحي القانونية . فقد لاحظنا فى أغلب القوانين واللوائح البلدية أوضاعًا مجحفة لكل من اليهود والمسلمين فيما يتعلق بجرائم العنف الجسدى، سواء كانوا معتدين أو ضحايا، وكذلك فيما يتعلق بإمكانية الإدلاء بالشهادة أمام القضاء.

حظر عليهم ألفونسو الحادى عشر القيام بمهام التصصيل، والإشراف، والتأجير، والتحقيق، فيما يتعلق بالأموال الملكية. وتؤكد خلال الدورة البرلمانية ١٣٨٥-١٣٨٩، على ألا يشغل هؤلاء وظائف الضباط أو المشرفين فى حاشية الملك أو مع النبلاء، وامتد

هذا الحظر حتى يناير ١٤٦٥ يشمل الوظائف العامة كلها. لا شك أن ذلك الحظر الذي شمل كلاً من اليهود والمسلمين، كان يستهدف اليهود في أول الأمر، لأنهم هم الذين كانوا يتولون الوظائف العمومية المهمة، ومع ذلك ظلوا يمارسونها على الرغم من تلك التعليمات.

وفيما يتعلق بقضايا أخرى، كونت الطوائف الكبيرة من اليهود والمدجنين جماعة *aljama* ، وسمح للمجموعات الأصغر في الأماكن المجاورة بالاشتراك فيها. وقد شكّلت هذه الجماعة للنظر في مختلف الشؤون المتعلقة بالإدارة الداخلية أو التصريح بممارسة الشعائر الدينية . وكان لتلك الجماعات قضائهم الذين يضطلعون بحل النزاعات المدنية الداخلية. وكان على رأس كل تنظيم قضائي شيخ كبير كما سمي في عهد ألفونسو العاشر، وسمى في عهد هنري الثاني بكبير القضاة. وهناك أمثلة كثيرة لقرارات أصدرها ملوك القرن الخامس عشر بتعيين كبار القضاة.

فرضت قيود معينة على اختصاصات قضاة المدجنين، منها ما هو دائم، ومنها ما هو عرضي، ومن أمثلة الأولى، دخول القضايا الجنائية ضمن اختصاصات القضاة للمسيحيين العاديين، وأما القضايا المدنية المختلطة فكان يفصل فيها جزء من المسيحيين وجزء آخر من المسلمين.

من المعروف أن نصريف الشئون الخاصة بالقانون الإسلامى فى مدينة بورغوس Burgos مثلاً كانت فى أيدي مسيحية، على الأقل منذ عهد سانشو Sancho الرابع، الذى منح امتيازاً فى عام ١٢٩٢ جاء فيه : تدخل النزاعات التى تقع بين المسلمين المقيمين فى مدينة بورغوس وما فى حوزتها، فى نطاق اختصاصات قاضى هذه المدينة". وفى عام ١٢٩٥ منح فرناندو الرابع مجلس بورغوس الصلاحية لتعيين أربعة قضاة سنوياً، يتم اختيارهم من بين سكان المدينة، وذلك للنظر فى النزاعات بين المسيحيين وبين المسلمين واليهود.

ارتكز تطبيق القانون الإسلامى خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر على نصوص وخلاصات شرعية كتبها فقهاء مدجنون بالإسبانية؛ نظراً لأن السواد الأعظم من بنى جلدتهم فقدوا اللغة العربية، وكان القضاة المسيحيون العاديون فى حاجة إلى معرفة التشريع الإسلامى. وقد وصلت إلى أيدينا بعض هذه المؤلفات، وخاصة التى كتبت حوالى عام ١٤٦٤ وكتبها فقيه شهير فى جماعة سيغوييا يدعى عيسى بن جابر : "مختصر السنة، أو مجموعة فى الأوامر والنواهى فى الشرع والسنة" Brevario Cunni o Suma De .Principales Mandamientos Y Develamientos De La Ley Y Cuna

يقول الكاتب في مقدمة للكتاب إنه وضعه بالإسبانية حتى يمكن استيعاب ما به "لأن المسلمين في قشتالة، تحت ظروف القهر والإكراه، ونقل الأعباء الضرائبية والإجهاد والعمل، فقدوا ثرواتهم والمدارس العربية"، وإن مؤلفه عبارة عن موجز للوجوه الأساسية "فالكتب الكبيرة من عمل أولئك الذين يمتلكون ما يضمن لهم أمان العيش، وهذا ما لم يتوفر لدى مسلمي قشتالة". ويمكننا أن نقف في فترة عيسى بن جابر على أصول نوع من الأدب الإسلامي المحلي، كتب الجانب الأكبر منه باللغة الألفميدية، أى بلغة إسبانية كتبت بحروف عربية. ربما أولاد هذا الفقيه الشهير أن يؤسس إسلام المدجنين، لكي يجعل من أتباعه عنصرًا يحظى بالقبول لدى مجتمع الأغلبية وسافر إلى سكسونيا، وهناك اشترك مع خوان دي سبغويبا في ترجمة القرآن إلى اللغة الإسبانية. ويؤكد عيسى في مقدمة كتاب مختصر السنة نفسه، ولأذى أشرنا إليه، أنه قام بالترجمة حتى يتسنى للإسبان جميعهم قراءته والإلمام به وفهمه، ودرء الأفكار الزائفة التي أثارت حوله.

صورة أخرى من صور الاهتمام الذي أحيطه التوجيهات الإسلامية خلال الفترة التي كان يسيطر فيها المسيحيون سياسيا على رعاياهم من المسلمين، هو كتاب السنة والشريعة Cune Xara، وهو عبارة عن ترجمة من العربية إلى لغة قطالونية، تمت في أواخر القرن الرابع عشر، ويتناول المبادئ القانونية والدينية الإسلامية.

المعلومات المتوفرة لدينا حول التنظيم الداخلى للجماعة قليلة. كان الفقيه أهم شخصياتها، فهو الخبير بالقانون، وهو المكلف بالمهام الدينية والتعليمية . وقد كان الفقهاء هم وحدهم الملمين باللغة العربية بين أفراد الجماعة (فى الغالب). بالاطلاع على وثيقة ترجع إلى أواخر القرن الخامس عشر تبين أنه كان فى أвила Ávila ثلاثة فقهاء، كل واحد منهم فى مسجده، وقد تناولت هذه الوثيقة مناقشة دارت بينهم وبين جماعات كل من بورغوس، وبلد الوليد. وظهر فى بورغوس فى ذلك الحين فقيه يوقع على إحدى الوثائق المحررة باللغة العربية، وخلال الفترة من ١٤٥٩ إلى ١٤٦٠ نشر فقيه مدينة سالم عددًا من المحررات الخاصة بتوزيع الموارث باللغة العربية أيضا. وفى مدينة مولينا Molina قدم الفقيه يوسى دى فاسيه Yuce De Vacia للمحاكمة أمام محاكم التفتيش بسبب قيامه بنشاط تبشيري، وذلك فى عام ١٤٩٥ . كل هذا يوضح أن الفقهاء كانوا أصحاب كل من السلطة الدينية والأدبية، وفيهم تمثلت القدوة الروحية فى الجماعات، وكانوا فى الوقت نفسه القاطنين بأعمال الكتبة والمؤلفين، كما يوضح من جهة أخرى أيضا أن اللغة العربية كانت مستخدمة، وإن كان على نطاق ضيق، وأن استعمالها اقتصر آنذاك على الجوانب الدينية والقانونية حتى أواخر القرن الخامس عشر.

كان تنظيم الجماعات اليهودية مشابها للإسلامية : فى المقدمة كان الكهول أو المتقدمون فى السن، ثم المقدم، فالقضاة أو الديانيم



Dayynim، وهذا الأخير يعادل منصب القاضي في المجلس البلدى ، لا يهم أن يكون ضليعا في تعاليم التلمود ولكن يتعين عليه أن يرجع إلى الحاخامات. وفيما يبدو أن الملك كان صاحب الحق في تعيين الحاخامات في جمعيات معينة، وكان الحاخام يتمتع بسلطات دينية وقانونية كبيرة. وكان التشابه بينه وبين شخصية الفقيه المسلم واضحا. أما الكبار Viejos فقد كانوا ينتمون إلى عائلات كبيرة، وهم المسؤولون عن إدارة شئون الجماعة، والمهام المتعلقة بالضرائب، وتسيير شئون القضاء. ولم يكن ثمة اختلاف واضح بينهم وبين الديانيم اللهم إلا اختلاف واحد، وهو مهم، إذ يتمثل فى أن الحاخام كان يصل إلى منصبه بالتعيين، وأما الكبار فكانوا يختارون على ضوء ما يتمتعون به من سمعة طيبة، وتقديرا لنسبهم وحسبهم. أما جمعيات الأقلية، أو جمعيات المملكة بالكامل فكانت تحت إشراف الحاخام الأكبر، المعين من قبل الملك، فى بعض الأحيان.

وكانت المناطق الإدارية اليهودية، مناطق المدجنين، تضم المعابد أو المساجد، والحمامات، والمجازر، والجبانات إلخ، كل فيما يخصه. وعلى خلاف جماعات المدجنين، كانت الجمعيات اليهودية تضم جماعات من المثقفين الذين يكفون على دراسة التوراة، ونصوص التلمود، وكانت هذه الجماعات تشترك فى مختلف حالات الفكر المتعلقة باليهودية، فى ذلك الحين، وكان التعاون قائما

بينهم وبين الشخصيات البارزة في مجالات الفلسفة والأدب، وخاصة في مجال الشعر.

تحمل كل من المدجنين واليهود، كما ذكرنا، أعباء ضرائبية خاصة، ومع ذلك لم يعفوا من الضرائب الأخرى العامة المفروضة على جميع السكان في المملكة. أضف إلى ذلك أعباء استثنائية أضيفت اعتباراً من عام ١٤٨٢، والتي أصابت الطوائف المدجنين واليهود، باختناق حقيقى. بالنسبة للضرائب الأولى كانت هناك لجنة مكلفة بالتقدير والتحصيل، يختار الملك أعضائها من بين كبار المسلمين، بالاشتراك مع الفقهاء، وبالتالي كان هؤلاء هم القيادات المرئية بالنسبة للطوائف. ومع ذلك، لم يكن لأحد من هؤلاء مهمة في توزيع جزية أو إتاوة أو ضريبة بدون إذن من الملك، حتى لو كانت هناك نفقات مطلوبة للإنفاق على الشؤون الداخلية للطائفة أو الجمعية. ولقد نص القانون الصادر عام ١٤١٢ على هذا الحظر، وظل العمل سارياً به طوال القرن الخامس عشر، وتضمن هذا النظام أيضاً عدداً آخر من القيود والمحظورات، على غرار تلك القيود الملكية المعمول بها في قشتالة، ومنها منع اليهود والمسلمين من حمل السلاح. ولعل الجديد والمهم في ذلك القانون هو بدون شك، ذلك الحظر الذى يقضى بعدم مغادرة المملكة، أو تغيير محل الإقامة دخلها، وبمعرض من يخالف ذلك للسجن، ومعاقبة كل من يأوى أحداً من المدجنين الغرباء.

كذلك فرضت سلسلة من القيود الاجتماعية الأخرى على كل من المدجنين واليهود، من قبل التشريع الكنسي. فقد قرر مجمع لتران Letrán الكنسي عام ١٢١٥ أن يرتدى اليهود والمسلمون المقيمون في المجتمعات المسيحية ألبسة تميزهم عن غيرهم. وثبت أن ارتداء الأزياء الخاصة بالمسلمين ظل معمولاً به حتى النصف الثاني من القرن الثالث عشر، كما كان هناك تمييز بشأن تمشيط الشعر وشكل اللحية. وصدرت طوال القرن الثالث عشر قرارات استهدفت المدجنين، تجاوزت التمييز في شكل الملابس إلى منعهم من ارتداء الأكمشة القيمة والجوخ، أو النعال الثمينة، أو التزيين بما يوحى بوضع اجتماعي راق. كذلك نصت أوامر بلدية بورغوس Burgos الصادرة عام ١٤٨٥ على حرمان المسلمين من استعمال المجوهرات الذهبية، أو ارتداء الملابس الحريرية، أو الملابس القرمزية، أو استعمال لون غير اللون الأسود في التزيين.

يرجع أول القرارات الخاصة بوضع علامة مميزة على الملابس إلى ما أقره المجلس النيابي في بالنتيا Palencia في عام ١٣١٢، وما أقره المجمع الكنسي في سموره Zamora عام ١٣١٣، وطبقت على اليهود فقط. أما بالنسبة للمدجنين، فقد أمر الملك هنري الثاني في مجلس تورة Toro النيابي وفي مرسوم له في عام ١٤٠٨، بوضع هلال أزرق على الكتف الأيمن، وقلنسوة لونها أصفر ضارب إلى الخضرة. ونص قانون عام ١٤١٢ الشهير، والذي سبق أن أشرنا

إليه، على حظر ارتداء الأقمشة الثمينة، وحلق اللحية أو شعر الرأس، كما نص على ألا يدعى أحد منهم في التعامل بلفظ دون Don (سيد) وأدرجت مراسيم ملكية أخرى هذه القواعد، على صور مختلفة، وفسر كثير من الكتاب تكرار هذه التعليمات بالإعراض دائماً عن تنفيذها<sup>(\*)</sup>.

مظهر آخر من مظاهر التمييز الاجتماعي، تمثل في الفصل الإسكاني، وقد بدأ ذلك يتبلور في مجمع سلمنكا Salamanca الكنسي عام ١٣٣٥م. وأكد مجمع بالنثيا الذي عقد على ١٤١٢ على ضرورة تطبيق فصل أحياء المسلمين وأحياء اليهود بشكل عام، مع التصريح لهم بتملك محال وورش خارج المناطق السكنية. وأخيراً نص قانون عام ١٤١٢ على فصل اليهود والمسلمين وإبعادهم إلى أحياء خاصة بهم، ونص أيضاً على عدم السماح لهم بالإقامة مع المسيحيين، بل وأكد على ألا يدخل المسيحيون، والنساء بوجه خاص، الأحياء الخاصة بتلك الطائفتين.

صدرت أيضاً قرارات أخرى تقضي بعدم الاتصال أو التقارب، فمثلاً تقرر منع النساء المسيحيات والمسلمات من أن ترضع إحداهن طفلاً من دين غير دينها. واتخذ مجلس سيبوليدا

---

(\*) بهذا المنطق نفسه تم تفسير مجموعة القرارات التي تعظر سفر المسلمين إلى بلاد العالم الجديد على أنه دليل ينفي على وجود المسلمين هناك. (المراجع)

Sepulveda قائمة من القرارات، منها اعتبار أى امرأة مسيحية ترعى أطفالاً مسلمين أو يهود أو تعيش معهم، امرأة بغية تطبق عليها عقوبة الجلد والطرْد خارج البلدة. كما تقرر عدم التصريح للمسلمين أو اليهود باقتناء عبيد أو خدم مسيحيين. وشملت قرارات الحظر أيضاً عدم الاتجار بالملكوّلات الجاهزة وبيعها للمسيحيين، على أن يبيعوا لهم فقط للحيوانات الحية، وألا يملكوها محالاً لتجارة المواد الغذائية أو البقالة. إننا ندرك أن هذه القيود لم تدخل حيز التنفيذ بشكل مستمر ؛ فقد جاء فى وثائق بورغوس مثل وجود باتعين من الباطن من المدجنين اشتغلوا بتجارة المواد الغذائية. كذلك اشتملت أحياء المسلمين واليهود على مخازنها، ومجازرها، وحماماتها، وجباناتها الخاصة فى مواقع منزلة.

كانت مهنة الطب من المهن التى لم يسمح للمسلمين أو اليهود بممارستها، شأنها فى ذلك شأن كل ما من شأنه أن يوجد مجالاً للاتصال، بل وكل ما يمكن أن ينطوى على تفوق على المسيحيين. ولقد رأينا أن هذا الحظر لم ينفذ بالنسبة لليهود، وإن كان يدخل فى حيز التطبيق فى حالة إذا ما كانت هناك رغبة فى القضاء على شخص ما، أو تقديمه بوصفه كبش فداء لعدم رضا السلطة الملكية عنه. منع المسلمون واليهود أيضاً من العمل بقالين، أو صياذلة، أو أطباء، أو جراحين، أو قابلات (مجمع بلد الوليد الكنسى

عام ١٣٢٢، ومجمع سلمنكا عام ١٣٣٥ وقانون ١٤١٢). مرة أخرى ثبت في بورغوس أن الواقع لا يتفق بالضرورة مع ما هو مشروع، ففي عام ١٤٨٤ قرر المجلس البلدى هناك منع المسلمات من ممارسة مهنة القبالة أو للممرضة، ولكنه أشار فى النص نفسه إلى أنه فى حالة تطبيب امرأة مسيحية من آلام نسائية وتطلب الأمر استدعاء مسلمة يُصرح للمسلمة بالاستجابة بموجب ترخيص من السادة المعاونيين والقضاة العاديين بالمدينة.

كان الزواج المختلط من المحظورات أيضا، وكذلك دخلت إقامة العلاقات الجنسية أو العاطفية قائمة المنوعات. هذا ولم يسمح لليهود أو المسلمين بقولى شئون الوصاية، ولا يستعان بهم فى الشهادة ولا يتخذ أحد منهم أبنا روحيا. ولم يسمح لأحد ممن ينتمون إلى طائفة بحضور الحفلات الخاصة التى تقيمها الطائفة الأخرى. وكان نظام السلام والتعايش قائما على التمييز بين الطوائف، بل وكانت الأقليات نفسها تسعى إلى هذا التمييز، بوصفه وسيلة من وسائل الحماية، وأسلوبا للحفاظ على ترابط الجماعة وتماسكها، والتمسك بالتقاليد التى تحكمها. وبشعائرها الدينية. كما كان محظورا على المسلمين واليهود أيضا حضور أعياد المسيحيين وصلواتهم. مرة أخرى نشهد أن روح التسامح على الصعيد الشعبى كانت أكثر قوة من القوانين. واعترف بذلك مجمع بلد الوليد الكنسى، والمجمع الأسقفى لمدينة

طليطلة، إذ أصدر أواخر تقضى بأنه "من الآن فصاعداً لا يسمح بحضور المسلمين أو اليهود في الكنائس أثناء الاحتفالات، كما يحظر على المسيحيين المشاركة في حفلات الزواج، أو في جنازات المسلمين أو اليهود. وعلى الرغم من هذه التفرقة التي يفرضها القانون كانت علاقات حسن الجوار سائدة بين مختلف الطوائف. وقد شارك مسلمو مدينة أвила Avila المسيحيين أحزانهم أثناء مراسم جنازة هنري الرابع في الكاتدرائية، كما شاركهم أفراسهم بمناسبة الاحتفال بتولي إيسابيل عرش البلاد بعد بضعة أيام.

من جهة أخرى، اتخذت مجموعة من الإجراءات القانونية، استهدفت دفع الناس إلى اعتناق المسيحية، كما نصت على إنزال أشد العقاب على من يرتد عن المسيحية، أو من يتحول من اليهودية إلى الإسلام أو العكس. وتضمنت الضغوط الاجتماعية والاقتصادية التي تحض الناس على التنصر احترام حق الملكية للمتصر (مجمع مدينة بنيايفيل Peñañel الكنسي عام ١٢٠٣) كما تضمنت أيضاً تقديم مساعدات نقدية، وعطايا للمتصر الفقير (مجمع بلد الوليد الكنسي ١٣٢٢) هذا بخلاف ما قد يتمتع به المتصرون من معاملة ضرائبية أكثر ترففاً، إضافة إلى وضع قانوني لا يشوبه تمييز.

محصلة هذه القرارات كانت مدمرة، ولا تتفق كثيراً مع مفاهيمنا المعاصرة عن التسامح، مهما تصورنا تساعد هذه المحصلة

وما صاحبها من غياب التوازن بين الإصدار والتطبيق عبر ثلاثة قرون، ومهما أشارت الوثائق إلى أن التعايش اليومي بين مختلف الطوائف كان بعيدًا عن صرامة القانون. كان القوى هو الذي يستند إلى ذلك التشريع كلما رأى نفسه في حاجة إليه، ومن هنا يتبين أن الأكليات كانت تعاني من التهميش والعجز عن الدفاع عن نفسها تمامًا. ومع ذلك ينبغي ألا ننفل أن تلك الظروف التي ألمت باليهود والمدجنين كانت أفضل كثيرًا من تلك التي مر بها اليهود في مختلف البلاد الأوروبية المعاصرة في ذلك الوقت، بما في ذلك ما اتخذته الممالك الأوروبية جميعها من قرارات تقضي بطرد اليهود من أراضيها خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر.

أما فيما يتعلق بمجالات المدجنين المهنية، فقد رأينا أن كثيرًا من القرارات التشريعية التي أشرنا إليها وضعت قيودًا شديدة أو منعت من ممارسة مهن معينة، وبخاصة تلك التي لها علاقة بدوائر الاختصاص العمومية، والتنفيذية، والطب. وأضاف القانون الصادر عام ١٤١٢ المهن التالية إلى قائمة الممنوعات : البيطرة، والحدادة، والنجارة، وصناعة الدروع، والحياكة، وتجارة الجوارب، والجزارة، وتجارة الجلود، والملابس المستعملة، وتجارة الجملة. إلا أن هذه القرارات لم تدخل فيما يبدو حيز التنفيذ بالقافية الكافية على أرض الواقع . حقيقية إننا لم نتوصل إلى معرفة ما إذا كان ثمة



مسلمين شغلوا مناصب عامة، أو كان لهم دور في ممارسة الطب (وإن كانوا يقومون بعمل للمرضيين والقبيلات إلخ...) ولكننا عرفنا - كما سيتبين فيما بعد - أن هناك من اليهود من كان يمارس تلك المهن، علمًا بأن قرارات الحظر كانت تشعلهم. ويرجع السبب الأساسي في هذا التمييز إلى وضع كل من الأفقيتين. فسرعان ما فقد المدجنون النخبة والطبقة المثقفة لأن هؤلاء أنشروا الهجرة إلى الأندلس، بينما تمسك اليهود بالمناطق التي استولى عليها المسيحيون<sup>(\*)</sup> اعتبارًا من نهاية عهد ملوك الطوائف (واحتلوا مناصب متميزة بها) وحتى غزو المرابطين، واحتفظوا بطبقة الصفوة، والطبقة المثقفة منهم. ولذلك ازداد وضع المدجنين تدهورًا وتهيمشًا، ولكنهم لم يكونوا عرضة لمناخ عدائى على الصعيد العام فيما يبدو ، على عكس الحال تجاه اليهود.

تناولت وثائق المدن الرئيسية في قشتالة المدجنين وأشارت إلى ممارستهم لمختلف لصور للنشاط الحرفى، وخاصة الأنشطة المتعلقة بقطاع البناء، والحدادة، وصناعة الأكفال، والزجاج، والفخار،

---

(\*) تفصيل اليهود الإقامة في الممالك المسيحية يتفق مع ما ورد في كتاب آخر يقول فيه يهودى "إن معاملة المسلمين لنا أفضل كثيرًا من معاملة المسيحيين" انظر كتاب "بين الإسلام والغرب" ترجمة مدوح البستوى، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥. (المراجع)

والسلال إلخ... وقد ثبت وجودهم على نطاق كبير فى مجال البساتين. وفى سيغوييا كانت جميع المحاصيل البستانية فى ضواحي منطقة البارال Paratall خاصة بهم وحدهم. وتفرنت بورغوس بوجود نجارين مسلمين مهرة فى صناعة الأدوات للحربية، كما اشتغلوا أيضًا رجال إطفاء. كذلك كان هناك نجارون من بلد الوليد. إنها حرف متواضعة فى العادة وجدت فى المناطق الحضرية والمناطق المحيطة بها. ولعل الطابع البسيط والخلاق الذى اتسم به المدجن (الموريسكى فيما بعد) والذى تناولته أدبيات العصر إنما هو انعكاس لذلك للقصور المهنى والاجتماعى الذى يصعب تجاوزه.

من حسن حظ الأقلية المسلمة فى قشتالة أيضًا أن أهدأ لم يبد اهتمامًا بها. وهذا يعنى أننا لا نعرف إلا للزور اليسير عن المناخ الذى كان يودى فيه المدجنون شعائرهم الدينية. ولعل ما نعرفه حقًا أنه كان لزامًا عليهم أن يعربوا عن آيات الإجلال والتقدير للديانة المسيحية؛ فلم يصرح لهم بالعمل علانية أيام الأحد أو فى الأعياد الرسمية، وكان يتحتم عليهم أن يحبسوا أنفسهم فى ديارهم فترة أسبوع الآلام، كذلك كان لزامًا عليهم أن يجثوا راكعين إذا تصادف مرور القربان المقدس أمامهم. وبالنسبة للنشاط التبشيرى للإسلام فقد كان محظورًا، وكان من يقدم عليه يعرض نفسه لأشد صنوف العقاب.

بوسعنا أن نؤكد - على ضوء هذه المعلومات إذن - أن طائفة المدجنين في قشتالة كانت مجرد أقلية محدودة العدد، ومع ذلك عاشت في استقرار على مدى العصور الوسطى ، وكانت بعيدة كل البعد عن كونها كتلة واسعة الانتشار في مختلف المواقع. وكانت مقسمة إلى جماعات استقرت في مناطق الحضر بشكل أساسي، حيث تركز نشاطها في الفنون الحرفية والتجارة البسيطة والفنون التي تتعلق بالبناء : فن العمارة باستخدام الطوب، وأعمال الجبس، والنجارة، والفنون الحرفية. نماذج متراكبة على الطراز الروماني، تطالعنا بها فنون المدجنين بدءًا من سيغوبيا وحتى بالنثيا Palencia، بما في ذلك ليون وبورغوس. تميز الطراز الفني الذي عرفناه عن المدجنين خلال العصور الوسطى المتأخرة بالنكامل والتماثل مع مختلف الطرز المسيحية (الروماني، والقوطي، وطراز عصر النهضة ... إلخ) دون أن يوحى مظهره بوجود ضمنى لجماعة من المدجنين.

لعل أكثر العصور تأثيرًا بالمدجنين، بالنسبة لقشتالة هي تلك الفترة التي تمتد ما بين القرن الثالث عشر والقرن الخامس عشر، ولقد فتح القرن الثالث عشر (اعتبارًا من موقعة العقاب Navas De Tolosa التي دارت رحاها عام ١٢١٢م، وأسفرت عن هزيمة ساحقة للسلطة المسلمة) فتح الطريق أمام عدد هائل من الفزوات الإقليمية التي شملت أيضًا منطقة وادي نهر الولاد الكبير. في ذلك

الوقت كان خليمي الأول ملك أراغون يشن هجماته على القطاع الشرقي لشبه الجزيرة كله. ونتيجة للاحتلال العسكري السريع لمناطق شاسعة، كثافة السكان فيها عالية، وغنية بموارد اقتصادية وريفية متطورة للغاية، اضطر الغزاة (وكان ينقصهم الحرفيون المتخصصون، والعمال المدربون على نظم الري) إلى الاستعانة بسكان المناطق التي تم الاستيلاء عليها. وترتب على ذلك تأثير هائل ترك المدجنون بصماتهم من خلاله على الحياة اليومية للغزاة المسيحيين.

اتخذ القشتاليون بعد احتلالهم للغرب الأندلسي من بيوت المسلمين التي شيدها أصحابها ما يتناسب مع احتياجاتهم. أما البيوت الجديدة فقد قام ببنائها الحرفيون من المدجنين، وتم تجهيزها بالسجاد، والحصير، والأثاث، والقيشاني أو السيراميك، والأواني الفخارية، التي نقلت من بيوت الأندلسيين. وكان القطاع الأكبر من خدم المنازل، والمُرضعات، وعمال الحدائق والبستانيين، من المدجنين. وبدأ تأثير المدجنين واضحا تمام للوضوح في المعاداة والتقاليد ومظاهر الترف في الأكل، بل وفي الملابس أيضا. حتى القرن الخامس عشر كان القشتاليون يفضلون لزياء المسلمين، وخاصة الطبقة الأرستقراطية، وإن كان ذلك يحدث بشكل عارض، وحتى الملكة إيسابيل الكاثوليكية نفسها، شأنها شأن كثير من النساء، كانت

ترتدى أزياء المسلمين. وكان بدرو الأول ملك قشتالة، الذى شيد حصن إشبيلية Alacazar، ودير طوروسيلاس Tordosilas، وهما من الآثار الرائعة المتميزة بالطابع الفنّى الذى عرف عن المدجنين، كان مفرماً بارتداء الزى الإسلامى. لم يرجع تأثير المدجنين هذا إلى بقاء سكان منهم فى المناطق التى استولى عليها المسيحيون فحسب، بل يرجع أيضاً إلى الاتصال الذى لم يتوقف على مدى قرنين من الحرب مع حدود مملكة غرناطة، ويرجع أيضاً إلى تدخل القشتاليين فى شئون الغرناطيين الداخلية. وقد وصفت مملكة غرناطة أيضاً بدورها بأنها مملكة (مدجنة) لأن بقاء المملكة كان مرهوناً بدفع الجزية لمملكة قشتالة.

وكان من نتائج الحرب أيضاً، وقوع عدد كبير من الجانبين فى الأسر، وبالنسبة للقشتاليين استخدم الأسرى فى الأعمال المنزلية بشكل دائم تقريباً، كما أن وجود عدد كبير من الغرناطيين ممن كانوا يلجأون فى بعض الأحيان ويلتحقون بالبلاط القشتالى بصفة مؤقتة، لأسباب سياسية، كان له دوره أيضاً فى التأثير على أزياء العاملين بالبلاط وعلى أسلوب حياتهم.

ولما زار عدد من الرحالة الأوروبيين البلاط القشتالى فى القرن الخامس عشر، أبدوا دهشتهم واستكراهم لما شاهدوه من طغیان الطابع الإسلامى على البلاط. وكان ذلك واضحاً تمام الوضوح فى

فرق الحرس الغرناطية المسلمة<sup>(٥)</sup>، للخاصة بالملك. فقد التحقت جماعات من مملكة غرناطة ممن اضطروا إلى الخروج من المملكة بسبب الصراعات الأهلية التي دارت هناك، التحقت بخدمة ملوك قشتالة خوان الثاني (١٤٠٦-١٤٥٤) وإيريكي الرابع (١٤٥٤-١٤٧٤). ولعبت الصراعات التي دارت بين مختلف المرشحين لتولي عرش قشتالة دورًا في تهيئة المناخ أمام هؤلاء المرشحين في الاستعانة بجيش غريب عن المجتمع القشتالي وأحزابه، يدين بالولاء للملك. وغالبًا ما كان يعود هؤلاء الفرسان إلى غرناطة إذا ما تغيرت الأوضاع وأصبحت لا تتناسب مع رغباتهم، ومع ذلك كان أغلبهم يفضل البقاء في قشتالة، وعلى الرغم من انتهاء المطاف بهم إلى التحول إلى الديانة المسيحية، فإنهم ظلوا متمسكين بالطابع الغرناطي، سواء كان في الملابس أو في تسريح الركائب أو في التسلح. يقول المؤرخ ألونسو دي بالنتيا Alonso De Palencia المعاصر للملك إيريكي الرابع "تضاعفت أعداد العاشية من المسلمين؛ فقد لقي لباسهم ارتياحًا لدرجة أن الملك كثيرًا ما كان يبدي إعجابه بأفضل من يحاكمهم في الملابس؛ وكان الفرسان من الغرناطيين والبربر، لما كانوا يتميزون به من تفوق في (المبارزات)، وإن كانوا أقل كفاءة في

---

(٥) كان بعض الملوك الإيجان المسيحيين يتخذون حرسًا من المسلمين، وقد استند الجنرال فرانكو إلى هذه المعلومات ليبرر أسلم منتقديه استخدام حرس مغربي بعد انتصاره في الحرب الأهلية الإسبانية. (المراجع)

المعارك الجدية، بلقون قبولاً وتفضيلاً عن فرساننا رغم تميز فرساننا عنهم في القامة والقوة". هذه العوامل الشككية - الجلية في نطاق ظاهرة عميقة - كان لها دورها في طرح شخصية فريدة للنهضة في إسبانيا، نهضة علاوة على انطوائها على الآثار الكلاسيكية، كما هو الحال في إيطاليا، نشريت بالطابع المدجن وطابع العصور الوسطى. أضف إلى ذلك أن هذه العوامل تجلت أيضاً وبمنتهى الوضوح في قصور النبلاء في إشبيلية (بيت إيبلاتو في إشبيلية، مثل طيبب لذلك) حيث تزين التماثيل الرومانية الواردة من إيطاليا، أو الفسيفساء الواردة من (إسبالييس) بيوتاً تجلت فيها مهارة الحرفيين المدجنين في أعمال الجبس والتقيشاني.

ألقى الحرس عام ١٤٦٦، ولكن بقي بعض أفراد منه في قشتالة بوصفهم مدجنين . ومنهم الفارس فرج دى بلفيس Farax De Belvis، الذي عين بعد انتهاء خدمته في الحرس محصل ضرائب (ضريبة الخدمة ونصف الخدمة) في جمعيات المسلمين، وفي عام ١٤٥٢ عين قاضياً في جماعة المسلمين في وادي الحجارة .Guadalajara

ومع ذلك، كانت للنخبة من المدجنين مجرد قلة، وكانت تلك النخبة تتحرك في فلك الملوك أكثر من تحركها لخدمة الطوائف التي ينتمون إليها، بعد أن تراجع فيها استخدام اللغة العربية كما سبق أن ذكرنا. وعلى الرغم من أن الإسلام في عصر المدجنين كان مقيداً

وضعيفاً، فإن حالات التحول الدينى لم تبدأ فيما يبدو قبل عام ١٥٠١م. ومع ذلك، فإن الظروف السياسية والدينية التى بدأ فيها القرن السادس عشر فى قشتالة أدت إلى إصدار مرسوم يقضى بتحول المدجنين إلى المسيحية بصورة جماعية. رأى المدجنون القشتاليون أنفسهم مطوقين بالأحداث، وغارقين فى المنازعات التى أخذت تزلزل فى ذلك الحين مملكة غرناطة بعد الاستيلاء عليها، وأنه يتعين وضع سكانها فى الحسبان، رأوا أنفسهم فى عام ١٥٠٢ أمام معضلة كالغرناطيين، إما أن يهاجروا فى ظل ظروف كانت الهجرة تبدو فيها أمراً شبه مستحيل، وإما أن يسلموها بالتمديد. ومن الناحية العملية، تحولوا جميعاً إلى المسيحية<sup>(\*)</sup>.

وهكذا ثلاثت فى عام ١٥٠٢ طائفة المدجنين المحدودة وتراجع معها وضعهم القانونى. وبقي المدجنون بموجب قرار تحت مسمى "المسيحيون الجدد". ثمة ملاحظة هامشية للاضطرابات التى سادت فى غرناطة، هى أن تلاشى هذه الطائفة لم تصاحبه صراعات، ولم يحدث جلبة، بل ولم يستدع اتخاذ إجراءات سياسية خاصة. ومع ذلك لم يستطع أحد أن يغفل فى القرن التالى ظهور مشكلة الموريسكيين، وإن لم تبد حادة فى قشتالة كما كان الحال فى مناطق أخرى بالبلاد.

---

(\*) كان تحولاً ظاهرياً فقط، لما فى الغناء فككوا ومارسون شعائر الإسلام. (المراجع)



## غرناطة :

سوف نلقى لمحة سريعة فقط على غرناطة، لأن لائحة المدجنين ظلت قائمة في هذه المنطقة وحدها نحو عشر سنوات، ولذلك سوف نتناول المجتمع الغرناطى فى الجزء الخاص بالموريسكيين.

فى عام ١٢٣٧ كانت غرناطة عاصمة آخر الممالك الإسلامية فى شبه الجزيرة. وكانت تشتمل على أقاليم مالقة Malaga، وغرناطة Granada، والمرية Almeria الحالية، وتخضع لحكم بنى نصر. تميزت هذه المملكة بكثافة سكانية عالية، أضيف إليها لاجئون مسلمون وفدوا إليها من جميع المناطق التى استولى عليها المسيحيون. ولما كانت هذه المملكة تخضع لتاج قشتالة، وكان سلاطينها يدفعون الجزية، تعرضت لتدخلات قشتالية فى نزاعاتها السياسية الداخلية، علاوة على الدخول فى حرب حدودية استمرت على مدى عامين .

أخيرًا سقطت غرناطة على أيدى الملكين الكاثوليكين عام ١٤٩٢، اللذين عقدا اتفاقات متميزة مع الملوك المسلمين على غرار تلك التى أبرمت خلال أفضل عهود المدجنين. شهد ذلك العام أيضًا صدور المرسوم الذى يقضى بطرد اليهود ، وهذا ما جعل نهاية عصر الاتفاقات أمرًا متوقعًا.

معاهدة الاستسلام التي وقعت قبل سقوط غرناطة، أثناء عمليات الغزو التي انتهت عام ١٤٩٢، كانت تسمح للأندلسيين بالنزوح إلى المغرب. أما بالنسبة للاتفاقات الموقعة أثناء الاحتلال القشتالي للقطاع الغربي من المملكة (١٤٨٤-١٤٨٧)، باستثناء مالقة، فقد منح المنتصرون مهلة تتراوح من عام إلى عامين لمن أراد من المسلمين أن يتوجه إلى الجانب الآخر للمضيق، وسمحوا لهم بالمرور مجافاً بأمتعتهم المنقولة. وبانتهاء تلك المهلة كان على كل من أراد الهجرة أن يسدد رسوماً للمرور. وأما بالنسبة لكل من غرناطة، والبشرات Alpujarra، فقد منح الملوك الكاثوليك سكانهما بعد أن ألقوا بالسلاح بانتهاء الحرب، مهلة ثلاث سنوات لمن أراد الخروج. وإن ما كانت تسعى إليه السلطات المسيحية حقيقة ليس إلا تخليص المجتمع الإسلامي في غرناطة من رموسه، بما يقضى على طبقاته الحاكمة. ولقد بعث هرناندو دي ثافرا Hernando de Zafra برسالة إلى الملك والملكة مؤرخة في ديسمبر ١٤٩٢، أفاد فيها بمرور أفراد الأسر الكبيرة في غرناطة بمنطقة ما وراء الجبال، وأعرب فيها عن تهانيه بأنه لم يبق بالمملكة سوى "عمال ومستخدمين مسلمين" وفي حديثه عن منفى أبي عبد الله، ملك غرناطة هو وأسرتة، يقول بيدرو مارتير دي أنغليريا Pedro Martir de Angleria فيقول: "وبذلك يزول أي احتمال لحدوث تمرد بين من يفتقرون إلى

القانون، فنادراً ما تنقلب للشعوب أو تعلن تمرداً عندما يغيب عنهم من الزعماء من ينتظرون للخضوع لحكمهم". كانت الهجرة تتم في الخفاء بعد فرض التحول إلى المسيحية إجبارياً في عام ١٥٠٢م، وبلغت ذروتها في الفترة من عام ١٥٠٤ إلى ١٥١٠م.

في غضون بضع سنوات، أي ما بين عامي ١٤٩٢ و ١٤٩٩، استقرت الأمور على حالتها، وساعد على استقرارها عدد من نبلاء غرناطة (المتعاونين)، تحول القطاع الأكبر منهم إلى المسيحية، وتعايشوا مع السلطة الجديدة، واشتركوا في بعض الأمور من بينها عمليات توزيع الأراضي على النبلاء والمستوطنين المسيحيين. بقيت في مملكة غرناطة الجديدة مجموعة من الأسر المسلمة وحصلت على الامتيازات التي كانت تتمتع بها طبقة النبلاء، وذلك مقابل ما قدمته من خدمات إلى التاج، وكانت تلك الامتيازات تقتضي أن يكون أفراد تلك الأسر قد اعتنقوا المسيحية طواعية وقبل سقوط المدينة (وعلى أي حال قبل صدور قرار التنصير الإلزامي الصادر عام ١٥٠٢) أو أن يقدموا ما يثبت انتماءهم إلى سلالة الملوك المسلمين في غرناطة. تمتعت تلك الأسر، ومن بينها بعض الأسر الشهيرة مثل أسرة غرناطة بني غلبان، والغري، ونونيث مولاي... إلخ، تمتعت بكافة الامتيازات والجيال غير القانونية لصالح النبلاء، وتزوج أفرادها من أسر الفاتحين أو المستوطنين، واندمجت اندماجاً كلياً مع

الأقلية الحاكمة في غرناطة، وكان تكاملها تكاملاً مطلقاً . ارتبطت بالجمعيات الدينية، وانضمت إلى الأنظمة العسكرية، وشغلت مناصب في حكومة المملكة. كان دورها في الدفاع عن مصالح طائفة الموريسكيين متبايناً. وشارك القطاع الأكبر منها في حرب البشرات إلى جانب للمسيحيين. كما نجوا من عمليات الطرد التي تمت عام ١٥٧٠ وعام ١٦١٤. وكانت هذه الأسر تمثل مجموعة لا يستهان بها، كما كانت نموذجاً للاندماج والاندماج الموريسكي في المجتمع المسيحي.

لما فيما يتعلق بالشعب البسيط، فقد تدهور وضع المدجنين تدهوراً سريعاً خلال السنوات الأخيرة من القرن لأسباب اقتصادية (مثل دمار صناعة الحرير، حيث لم يجد المسيحيون اهتماماً باستمرارها) وبسبب وصول المستوطنين المسيحيين ثم شغلهم للأراضي، وتدهور وضعهم بشكل خاص لأسباب دينية . وصول الكاردينال ثيسنيروس Cisneros إلى غرناطة أدى إلى إعلان حملة عنيفة تقضي بالتحويل إلى المسيحية، أدت إلى اندلاع ثورة أجج نيرانها المدجنون في ربض البيازين Albaicin وغرناطة عام ١٤٩٩. وامتدت الثورة لتشمل كل المملكة دون أن يتمكن أحد من إخمادها حتى عام ١٥٠١. فقد ثار المدجنون لما أدركوا انتهاك العهود ، واعتقد المسيحيون أن التمرد كان قد انتهى بتوقيع الاتفاقات. ثم أدى

ذلك إلى صدور قرار التحول الإجبارى إلى المسيحية عام ١٥٠٢،  
والذى سبق أن تحدثنا عنه، وامتد العمل به فى المناطق الخاضعة  
لتاج قشتالة.

### مملكة أراغون :

فى هذا الجزء لن أعيد الحديث عن قضايا التشريع الكنسى،  
أو حول التنظيم الداخلى للجمعيات، ولا أية عناصر أخرى مشتركة  
مع ما سبق التعرض له مع المدجنين فى المناطق القشتالية، ولكن  
سوف أركز أساساً على العلامات المميزة للمدجنين فى المناطق  
الخاضعة للتاج الأراغونى بما فيها فالنسيا.

فى البداية، وعلى خلاف ما هو معروف فى قشتالة، نعرف  
جيداً أن أصل المدجنين إنما يرجع إلى السكان الأصليين الذين أقاموا  
فى المنطقة قبل الغزو المسيحى. إنهم سكان ريفيون فى الأساس،  
أقاموا بكثافة فى وديان الأنهار الرئيسية فى بلدان صغيرة للغاية،  
وأحياناً كان سكان تلك البلاد جميعهم من المدجنين فقط، وخاصة  
أراضى السلطة أو المناطق العسكرية. أى أن وضعهم يختلف تماماً  
عن الوضع فى قشتالة، وهو ما سوف نتناوله فيما بعد.

بعد مرور ثلاثة قرون من السيطرة الإسلامية، بدأت البلدان  
الصغيرة بمنطقة البرانس التى أفرزتها الاضطرابات بين السكان

الأصليين وبمساعدة الممالك الفرنسية المجاورة، في أواخر القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر، بدأت توسعاً إقليمياً حتى وصلت إلى وادى نهر الإبرو Ebro. كان عدد سكان تلك الحصون البرانسية المتناحية الصغير قليلاً، وبالتالي كانت طاقاتهم السكانية عاجزة عن شغل المناطق التى تم الاستيلاء عليها من السلطة الإسلامية، لذلك أبقت التوسعات التى تحققت فى القرن الثانى عشر على قطاعات كبيرة من سكان المناطق التى تم الاستيلاء عليها من المسلمين الذين قبلوا البقاء تحت سيطرة المسيحيين. أما فئة القوادى ورجال السلطة، وأصحاب الأراضى، وكبار رجال الدين والمتقنين الأندلسيين، فقد اختاروا حياة المنفى فى ظل سلطة مسلمة. ولقد كان لاحتتمال البقاء فى ظل ظروف مريحة نسبياً أثره فى استسلام كثير من المناطق، وهذا ما خفف من حدة العمل العسكى والسكانى، كما كان له أثره فى تأمين قطاع الزراعة والقطاع الاقتصادى. كانت شروط الامتيازات وشهادات التخصيص تستهدف التحكم فى السكان المسلمين والسيطرة عليهم، خاصة أنهم كانوا يتمتعون بوضع معقول (حرية الهجرة، واستثناء من الأعمال الشاقة، والاحتفاظ بالهوية الدينية وبقوانينهم وسلطاتهم)، هذا بالإضافة إلى ظروف ضرائبية أفضل من تلك التى كانت تطبق فى ظل السلطة المسلمة إبان عصر المرابطين الذى تميز بالقسوة.

بذلك احتفظت منطقة وادي نهر الإبرو، من توبلا Tudela وحتى طرطوشة، وكذلك وديان روافده الرئيسية، (وخاصة نهر ثينكا Cinca، وسيفري Segre، وخلون Jalon، وخيلوكا Jiloca) وهي مناطق غنية جدا بالزراعة، احتفظت بكثافة عالية من السكان المدجنين، ظلوا حتى أتركوا العصور الوسطى المتأخرة في ظروف ساد فيها التمييز والتمييز، كما كانت أحوال المدجنين في قشتالة. كانت هناك أيضا جماعات مهمة في كل من مدن سرقسطة، وأويسكا Huesca، وبربشتر Barbastro، وقلعة أيوب. ولكن كثافة المدجنين العديدة بالذات تركزت في وديان مجرى نهر الإبرو، والوديان الواقعة على روافده ضفته اليمنى. ذلك لأن نظم الزراعة وتنظيم عمليات الري وكل ما له علاقة ببعض الأنشطة ذات المرجعية الإسلامية القوية، رأت في تلك المناطق خبر من يستوعبها. أما بالنسبة لسادة القوم، فقد ترسخت سلطتهم هنا بامتلاك أراض يقوم على زراعتها نسبة كبيرة من الأيدي للعاملة من المدجنين، لقيت تقديرًا كبيرًا من جانب السادة (النبلاء)، ومن المقولات المعبرة التي كانت تتردد : "من كان لديه مسلم، ملك في يديه الذهب".

ولكي نتعرف على عدد السكان المدجنين في أراغون، ربما لا تتوفر أمامنا سوى بعض المصادر ذات الطابع الضرائبي، كما هو الحال بالنسبة لقشتالة، علما بأن هذه المصادر ليست على قدر كبير

من الثقة... أما أول إحصاء محفوظ فإليه يرجع إلى عام ١٤٩٥، وقد أجرى بناء على أوامر من المجلس النيابي في تاراثونا (بلاط) Tarazona. ويتبين من هذا الإحصاء أنه كان هناك ٥١٥٤٠ منزلاً منها ٥٦٧٤ منزلاً تخص المسلمين. ولكن الخبراء يرون أن هذا الرقم قليل جداً عن الواقع، ويبررون ذلك بأن الجماعات كانت تلجأ إلى إخفاء الأرقام الحقيقية، لإدراكها أن أي بيانات سيكون لها مردود ضارائبي.

وكما هو الحال في شمال قشتالة، فقد ترتب على وجود المدجنين في أراغون نتائج ملموسة وواضحة حتى يومنا هذا، تمثلت في ظهور فن المدجنين. وهذا الفن هو أحد فنون العمارة، امتزجت فيه عناصر الفن الإسلامي بعناصر الفن الأوروبي بنسب مختلفة، فأبرزت شكلاً جمالياً جديداً، فالنتائج الفنية للمدجنين إنما هو نتاج أو فن أصيل نبع من شبه الجزيرة الإيبيرية واقتصر عليها وحدها، وقد انتشر وتأصل (من القرن الثاني عشر، وحتى القرن السادس عشر، ولكن نظرات عليه بعض المظاهر المستحدثة في القرن ١٩) وقد تكامل مع النظم المعمارية وعناصر الديكور الإسبانية، وتجلت في تحريك الحس الجمالي حتى انتهى به الأمر إلى الانفراد بطابع مميز له عُرف به، سواء كان ذلك في مناطق استقر فيها أو لم يستقر



بها مدجنون. وقد تبنت مدينة سرعسطة إقامة المركز الرئيسى لإبداع فن المدجنين الأراغونى، كما كانت مركزاً إشعاعياً انتشرت منه نماذج مدجنة ووصلت إلى مدن ومناطق أخرى. وقد قام كثير من المدجنين المتخصصين فى حرف متعلقة بفن البناء ببناء قصور وأديرة وكنائس للمسيحيين الذين وصلوا حديثاً إلى مختلف المناطق، فى طلبيلة أو ليون أو بالنتيا Palencia أو إكستريمادورا أو أندلوثيا. ونفذ المدجنون نماذج تعطى انطباعات رائعة بالثراء المبهر تجلت فى العمارة الدينية والمدنية والحربية، فضلاً عن المنشآت الحضرية (كما نلاحظ فى داروكا Daroca) مستخدمين فى ذلك مواد رخيصة يسهل الحصول عليها مثل الطوب الأحمر، والسيراميك المزجج، والجبس، والخشب، معتمدين على تطبيق نظم وتقنيات فنية ذات طابع إسلامى بحت.

فالنسيا :

اكتسب التوسع القطلونى الأراغونى دفعة هائلة فى القرن الثالث عشر مع تولي الملك خويسى الأول مقاليد السلطة. ويعتبر الاستيلاء على ميورقة (١٢٣٩-١٢٤١) أول مراحل هذا التوسع، إلا أننى سوف لا أركز على ذلك لأن المسلمين هناك كانوا أسرى

واعتبروا عبداً لا حق لهم فى تطبيق القانون الخاص بالمدجنين.  
أما بالنسبة لغزو مملكة فالنسيا خلال الفترة من ١٢٣١ إلى ١٢٤٥  
فالأمر يختلف تماماً، حيث اتبعت هناك سياسة الأحلاف؛ بهدف إبقاء  
السكان المسلمين فى وضعهم الطبيعى، مما جعل من السكان  
المسيحيين أقلية حتى نهاية القرن<sup>(٢)</sup>.

أغلب سكان فالنسيا كانوا من المسلمين حتى نهاية القرن الذى  
تم الاستيلاء عليها فيه تقريباً، وهذا لا يعنى أن التعايش هناك كان  
أمراً سيراً أو أن السلام كان يسود هناك. فالعداء من جانب المسلمين  
تجاه السيطرة القطلونية الأراغونية كان واضحاً بالطبع. وفى عام  
١٢٤٥ وقع الأمير ألفونسو، وهو ابن خايمى الأول، معاهدة مع زعيم  
مسلم يدعى الأزرق. ونص الاتفاق على أن يحتفظ الأزرق بمجموعة  
من الحصون بالمنطقة الصحراوية بين دينيا Denia، والكوى Alcoy،  
وتتبعان حالياً لمحافظة أليكانتى Alicante، وذلك لمدة ثلاث  
سنوات، على أن يتم تسليم هذه الحصون إلى خايمى الأول بانتهاء

---

(٢) لمزيد من المعلومات عن وضع مملكة فالنسيا بعد استيلاء المسيحيين عليها، انظر كتاب  
"دولورس" المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا ترجمة رانيا محمد أحمد، مراجعة وتقديم جمال  
عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤. (المراجع)

المدة، فترغم الأزرق ثورة مسلحة بعد انتهاء المهلة، ليست في المنطقة التي احتفظ فيها بالحصون التي تعهد بتسليمها فحسب، بل استولى على عدد آخر من حصون ملك أراغون؛ مما استفز الملك ودعاه إلى اتخاذ قرار بطرد المسلمين.

واندلع تمرد آخر في عام ١٢٧٥، ولم يتمكن خايمي الأول من إخماده بسبب مرضه، ففضى عليه ابنه وولى عهده بدرو الثالث (١٢٧٦-١٢٨٦) بعد عام واحد. أخذ العداء المتبادل في التصاعد، وانقض المسيحيون خلال الفترة من ١٢٧٦ إلى ١٢٩١ على أحياء المسلمين في فالنسيا، وشاطبة Jativa وفي مواقع أخرى، سلباً ونهباً.

وفي عام ١٥٧٨ طرد الملك بدرو "عدداً كبيراً من المسلمين" من مملكة فالنسيا إلى تلمسان (الجزائر)؛ وبذلك حدث تراجع سكاني لدى مسلمي فالنسيا، مما جعل صفة الأغلبية لا تقسحب على المسلمين في أوائل القرن الرابع عشر، بل تراجع عددهم إلى النصف. ولما اجتاحت الحروب بين قشتالة وأراغون مملكة فالنسيا في القرن الرابع عشر اتخذ الملك الأراغوني بدرو الرابع كل ما أمكنه من إجراءات لكي يعود المديجون الهاربون إلى الأحياء التي كانوا يقيمون بها.

ومع ذلك كان المسلمون في فالنسيا هم السكان الأكثر كثافة في جميع المناطق المسيحية بشبه الجزيرة، اعتباراً من تاريخ الاستيلاء عليها حتى اللحظة التي تم فيها طرد الموريسكيين، ولقد أدى موقع فالنسيا الحدودي مع مملكة غرناطة، وقربها من البحر وبالتالي من شمال إفريقيا، إلى اعتبار المسلمين هناك طابوراً خامناً أو جواسيس في نظر مسيحيي المملكة.

ونظراً للكثافة السكانية، وقرب مملكة فالنسيا من مملكة غرناطة (حيث تواصلت العلاقات مع المدجنين فيها، وحيث كان يتلقى هؤلاء تعليمهم)، كان المستوى الثقافي العربي الإسلامي لدى الفالنسيين، أعلى مستوى في شبه الجزيرة قاطبة، وحتى في فترة الموريسكيين.

## (٤)

### الموريسكيون

تتدرج مشكلة الموريسكيين فى القطور الشامل الذى شهده المجتمع والدولة منذ أن تولى الملوك الكاثوليك عرش البلاد. فقد تواءم اتجاه الدولة المتصاعد للتدخل فى شئون الحياة السياسية والدينية والاجتماعية جميعاً مع اتجاهها إلى تسوية بل وتوحيد المعايير القانونية والعقائدية. اتسمت هذه السياسة بالجنوح شيئاً فشيئاً نحو تقليص الإقليمية والاستثناءات من القاعدة، مما أفرز آليات وفئات اجتماعية جديدة مثل المتقنين، وذلك بهدف فرض هذه السياسة. وقد دفع للموريسكيون - شأنهم شأن جماعات أخرى - ثمن تطبيق هذه السياسة.

من جهة أخرى، تجدر الإشارة إلى أن توحد إسبانيا تحت لواء تاج واحد أصبح يتم بالتوريث (تماماً مثل الإمبراطورية) وذلك نتيجة لفترة سياسية طويلة قامت على المصاهرة، وأن مختلف الممالك اتحدت مع الاحتفاظ بتباين كبير فيما يتعلق بالميزات والقوانين، بل وبالنسبة للعملات أيضاً، تباين بدا واضحاً تلمم الوضوح فى كل

ما له صلة بالموريسكيين. اختلفت خصائص مختلف جماعات الموريسكيين، ورثة المدجنين (القشتاليين، والفرناطيين، والأراغونيين، ولِيسًا الفالانسيين) اختلافًا غير عادي بالنسبة لمدى درجة الاندماج وسهولته، وبالنسبة لمدى الإلمام باللغة العربية، والكثافة السكانية، وأهمية المناطق التي كانوا يقيمون بها اقتصاديًا، وكذلك بالنسبة للإجراءات التي اتخذها ملك أراغون وقشتاله تجاههم. خلال عهد الملوك الكاثوليك وعصر الملك كارلوس الخامس كانت مشكلة الموريسكيين مشكلة غرناطية وفالنسية أساسًا، واقتربت هذه المشكلة طوال القرن السادس عشر بالمشكلة التي أثرت بسبب قراصنة الشمال الإفريقي، كما اقتربت أيضًا بمشكلة تعرض مسلمي غرب البحر المتوسط ببلدان جنوب شرق شبه الجزيرة، وما أثار ذلك من مخاوف، واقتربت أيضًا بمشكلة لمواجهة مع الإسلام الخارجى، الذى نادرًا ما كان يراه الإسبان المعاصرون فى معزل عن الداخلى، والذى كانت له علاقة بالصدام أو مواجهة الإمبراطورية العثمانية. كانت حرب غرناطة بمثابة بداية النهاية بالنسبة للمسلمين الإسبان وقد أثر ما جرى فى غرناطة على ما حدث بعد ذلك فى مناطق أخرى خاصة فالنسيا.

لما انتهت حرب غرناطة لوحظت تناقضات صارخة فى إبرام معاهدات الاستسلام. فهناك السماحة والتسامح تجاه دين الطرف

المهزوم، انطلاقاً من ضرورة وضع نهاية لحرب طويلة ومكلفة، بينما كان هناك تصف شديد من جانب المجتمع "المسيحي القديم"، تلاحم مع فكر الملكية الإسبانية الحديث التي أخذت على عاتقها أن تتخذ من الدفاع عن المسيحية والعمل على نشرها مصدراً للشرعية. ذلك التشدد المتصاعد، الذي أقرزته أزمة القرن الرابع عشر (والتي تجلت مظاهرها في سلسلة من الاضطهادات والمذابح التي ارتكبت عام ١٣٩١ ضد اليهود)، زاد حدة في أواخر القرن الخامس عشر بإنشاء محاكم التفتيش، وصدور لائحة نقاء الدم، وكذلك نتيجة لطغيان قيمة الشرف. ففي الوقت الذي أدخلت فيه محاكم التفتيش، وتم طرد اليهود، فإن معاهدات الاستسلام لا يمكن أن تعنى سوى أنها مجرد نقطة انطلاق زائفة. فمجرد إبرام تلك المعاهدات التي وقعها الملكان (الملك فرناندو والملكة إيسابيل) في الوقت الذي تم فيه الاستيلاء على غرناطة، تسارعت أحداث التدهور في غرناطة، حتى بلغت ذروتها باندلاع حركة التمرد في ربيع البيازين عام ١٥٠١، والتي تلاها صدور المرسوم الذي يقضى باعتناق مسلمي غرناطة المسيحية. وقد كان لهذا المرسوم سلسلة من ردود الفعل. من بين تلك التفاعلات التذرع بأن اتصال المنتصرين حديثاً برفاقهم القدامى في الدين، قد يجعل اندماجهم في الديانة المسيحية أمراً صعباً. فالقضية تتمثل في أن المدجنين المقيمين في المناطق التابعة لتاج قشتالة وجدوا أنفسهم

أمام خيارين بموجب المرسوم الصادر في ١٢ فبراير ١٥٠٢، أما هذان الخياران فهما إما التتصر وإما الهجرة، إلا أن الهجرة كانت تكون ضرباً من المستحيل بموجب الشروط الموضوعية. وبعد استيلاء قشتالة على نابارا Navarra عام ١٥١٢، تم تطبيق مرسوم ١٥٠٢ على المدجنين هناك.

بقي إذن، عندما اعتلى كارلوس الخامس العرش عام ١٥١٧، مسلمو أو مدجنو المناطق التابعة لتاج أراغون، ومن الواضح أنهم لم يكونوا مهنيين لتطبيق الإجراءات التي تم تنفيذها في المناطق المجاورة. وتدخل حمايتهم النبلاء لدى البلاط في برشلونة عام ١٥٠٣ بهدف الحصول على ضمانات لصالح المدجنين، وفي عام ١٥١٧ اضطر كارلوس الخامس إلى أن يكذب ما تردد حول قيامه بإعداد الترتيبات الخاصة بالطرد أو فرض التحول الديني، وأقسم أنه لن يفرض ذلك بمرسوم. وقد كان المفجر الذي أثار التوتر وأجج حدة العداء الشعبي ضد المسلمين (كانت للجماعات الفالانسية قد طلبت التصريح بحمل السلاح لمواجهة هجمات القراصنة، وقد صرح لها بذلك) ذلك التمرد الذي ترعته الحركة النفايية المناهضة لطبقة السادة والنبلاء في فالنسيا، ثم أعلن للتمرد ضد حكومة كارلوس الخامس فيما بعد. وخلال الفترة من عام ١٥١٢ إلى ١٥٢٢ جعل أفراد الجماعات ضحاياهم المفضلة من المدجنين ثم اضطروهم إلى عملية



تعميد جماعية<sup>(\*)</sup>. وهيات عملية للتعديد هذه إجابة عن تساؤل حول أسباب الثورة . إن هجمات مسلمي شمال إفريقيا الذين كان الموريسكيون يعتبرون جواسيس لهم ، والحاجة إلى إيجلا كبش فداء أو مسئول عن داء الطاعون، وكان كبش الفداء هذا يتمثل في اللوطيين والأجانب والمسلمين. وكانت الثورة أيضاً شكلاً من أشكال مناهضة السادة (النبلاء)، لأن المدجنين كانوا مصدر دخل السادة. فقد كانت عمليات التعديد صورة من صور الإضرار بالسادة، وبالفعل، ما إن تم سحق حركة النقلابيين حتى تصدى السادة لفكرة إلغاء عمليات التعديد القسرية.

ثمة محرك آخر يجب أن يوضع في الاعتبار هو الاعتقاد بعودة المسيح، وهو اعتقاد ظل سائداً على مدى القرن في شبه الجزيرة، فقد كان الأمل في عودة المسيح ينطوي على وعد بمرحلة زمنية تغمرها السعادة، تسبق نهاية العالم، مرحلة يسود فيها السلام والعدل، يعتقد فيها الكفار جميعهم ديناً واحداً. ويفترض فيها زوال الإسلام على وجه الخصوص.

انتشرت عقيدة عودة المسيح أيضاً بين المواطنين الموريسكيين

---

(\*) كان الهدف من تعديد المسلمين جماعيا هو الإضرار بمصالح النبلاء، فعندما يتحول المسلم إلى المسيحية فإن يكون بحاجة إلى دفع ضرائب للنبلاء. (المراجع)

وكانت بمثابة عامل على قدر من الأهمية في حرب البُشُرَات  
Alpujarras . وفي تلك الأثناء، في الوقت الذي كان الناس يترقبون  
فيه عودة المسيح، لعب انتشار نبوءات سان إيسيدورو San Isidoro  
بشأن ضياع إسبانيا ثم استعادتها من الإسلام دورًا محوريًا. استغل  
هذه النبوءات أيضًا جماعات قشتالة Comuneros De Castilla، وكان  
أفراد الجماعات يرون أن القضاء على السادة قد يساعد على نجاح  
مبدأ المساواة، وأن تعمد المتجنين يساعد على توحيد جميع المؤمنين  
تحت لواء الدين الحقيقي.

بعد انتهاء حركة التمرد، طرحت مشكلة مدى جدوى عمليات  
التعميد التي تزعىها أبناء الجماعات أنفسهم، وعلى الرغم من الموقف  
للمعارض الذي اتخذته السادة (النبلاء)، وسلطات فالنسيا، رأت لجنة  
تضم عددًا من رجال اللاهوت والقانونيين في اجتماعات عقدتها في  
مدريد خلال شهرى فبراير ومارس، ورأسها الإمبراطور شخصيًا،  
رأت في جلستها الأخيرة للموافقة على صحة التعميد.

الأمر كان يتعلق في الحقيقة بخطة الملك كارلوس والمفتش  
العام ألونسو منريكي Alonso Manrique قبيل اجتماع لجنة مدريد  
هذه، وذلك في ظل ظروف سياسية تميزت بإعادة ترسيخ وضع  
الدولة، في الوقت الذي تم فيه القضاء على الأزمات التي أثارها

الطائفيون والنقابيون. وأصدر البابا كلمينتي Climente السابع مرسوماً بابوياً بعنوان اشتمل على مخطط لتتصير المدجنين وتعميدهم، كما تضمن تحرير الملك كارلوس الخامس من قسمه بعدم فرض التتصير القسرى.

ولما توصلت اللجنة أولاً إلى إيجاد حل لمشكلة التعميد القسرى، قامت بالتوفيق بين الكنيسة وبين الذين عادوا إلى اعتناق الإسلام، وأخيراً أمرت بتتصير مدجنى فالنسيا أولاً، ثم المدجنين المقيمين في المناطق التابعة لتاج أراغون، ولكنها حرصت على حماية مصالح السادة (النبلاء) بقدر الإمكان. أما الهجرة، وهي البديل المطروح، فإنها كانت مستحيلة من الناحية العملية<sup>(٥)</sup>، ولم يكن أمام المدجنين سوى حياة العبودية لو أرادوا الفكك من التحول الدينى.

ومع ذلك استطاع السادة الأراغونيون أن يحصلوا على بعض التيسيرات، فبعد مفاوضات طويلة استمرت حتى شهر يناير عام ١٥٢٦، وبعد دفع مبلغ من المال قدره ٤٠٠٠٠ دوقية حصلوا على موافقة بعدم تدخل محكمة التفتيش، وعلى أن يحصلوا خلال السنوات العشر التالية على تصريح بمواصلة استخدام لغتهم ولارتداء أزيائهم،

---

(٥) كانت شروط الهجرة هي ألا يسمح للموريكى ببيع أراضيهم الزراعية ولا حقاراته، ولم يكن يسمح له كذلك بحمل نقود أو جواهر. من ناحية أخرى كان أصحاب السفن يريدون تحصيل أجرة السفر من الموريكى، لهذا كانت الهجرة مستحيلة من الناحية العملية. (المراجع)

وأن تكون لهم مقابر مختلفة، كما حصلوا على موافقة على زواج أبناء العمومة... إلخ.

تحققت بذلك وحدة دينية من الناحية النظرية، وذلك على حساب إثارة مشكلة موريسكية سوف يتبين مدى صعوبة إيجاد حل لها. فقد كان المسيحيون الجدد يفتقرون إلى التربية الدينية، وتتقصهم أى رغبة فى أن يكونوا مسيحيين. أضف إلى ذلك أنه فى حالة احتمال اندماجهم، فإنهم سوف يصطدمون برفض من جانب المجتمع المسيحى القديم، وبمصالح النبلاء. فاعتناق المسيحية لا يضمن لهم الاندماج الكامل داخل المجتمع القشتالى ولا يمكنهم من الخروج من دائرة التهميش، ولذلك لم يكن لدى الموريسكيين ما يكفى من الحوافز التى تجعل منهم مسيحيين صالحين. لم يكتفِ الموقف المتشدد الذى اتخذته قطاعات من الكنيسة تأليفاً للتاج كسر تلك العقبات، ولا التغلب على الموقف السلبى الذى وقفه جانب كبير من رجال الكهنوت. كان موريسكيو أراغون أكثر تهلوناً، ولكن انفجرت ثورات فى فالنسيا فى الجنوب، فى سلسلة جبال بناغواثيل Benaguacil وبصفة خاصة فى سلسلة جبال إسبادان فى مقاطعة كاستيون ، حيث قامت حرب عصابات، تمكنت القوات للنظامية من سحقها فى الأشهر الأخيرة من عام ١٥٢٦. وبلغت ذاك العام لم يبق مسلمون بشكل قانونى أو معترف بهم بكونهم مسلمين على الأراضى الإسبانية،

وعندئذ بدأت مرحلة تميزت بممارسات قهر مسيحية، تقابلها مقاومة موريسكية، إضافة إلى بدء مرحلة التنصير والتكيف مع الثقافة المسيحية التي استهدفت أقلية بقيت محصورة تمامًا على ما هي عليه.

### تعليم الإنجيل والتنصير :

لم يبق في شبه الجزيرة مسلمون يحملون اسم مسلمين اعتبارًا من عام ١٥٢٦، وبدأت مرحلة استمرت نحو ثلاثين عامًا ركزت فيها السلطات المسيحية جهدها الأساسي في العمل على تنقيف أولئك الذين دخلوا المسيحية مؤخرًا وتنصيرهم. وقد لعبت تضاريس مملكة ليون الجغرافية، إضافة إلى جهود النبلاء التي استهدفت حماية المسلمين، دورها في وضع عراقيل كبيرة عطلت دخول المبشرين وموظفي السلطة المسيحية، مما ساعد المسلمين على الاحتفاظ بنمط الحياة والثقافة التقليدية الخاصة بهم بأكبر قدر ممكن، إضافة إلى الحفاظ على إقامة شعائرتهم الدينية. واحتفظت طوائف الموريسكيين بالتنظيم الهيكلي للجماعات كلما كان ذلك ممكنًا، بما فيها من الوكلاء الذين كانوا يتولون عمليات التفاوض مع ممثلي الكنيسة، أو للنبلاء، أو البلديات. واعتبارًا من العقد الذي بدأ عام ١٥٦٠ كلف مجلس محاكم التفتيش وكلاءه في الأراضي التابعة لتاج أراغون (حدث الشيء نفسه في غرناطة منذ عام ١٥٢٩) أن يحكموا الرقابة

والممارسات القمعية على الفقهاء، وعلى من ينبج من القضاة طبقاً  
للشريعة الإسلامية، والقبائل الموريسكيات، وعلى الوجهاء فى  
الأحياء الخاصة بالمسلمين، أى كبار العائلات الموريسكية المهمة ،  
الذين كان لهم دور مهم فى تحقيق الترابط الدينى داخل الجماعة، أى  
أن الغرض من ذلك هو تفكيك أنظمة الجماعات القديمة. فبدأت تلك  
الجماعات إلى ممارسة أنشطتها سرا، وبحماية من جانب النبلاء  
الذين مثل بعضهم أمام محاكم التفتيش بتهمة التستر على  
الموريسكيين. وصل كارلوس الخامس إلى غرناطة فى شهر يونية  
(حزيران) من عام ١٥٢٦، وظل هناك حتى شهر سبتمبر ، واكتشف  
من خلال مقابلاته ممثلين سواء للمسيحيين أو الموريسكيين مدى  
حجم المشكلة وضخامتها، وما يكتنفها من تعقيدات. ولجمع أكبر قدر  
من المعلومات أمر بإجراء عملية استقصاء فى المنطقة، وكلف به  
غاسبار دى ألونس وأنطونيو دى غيبارا، وكشف الاستقصاء عن  
وضع مترد ، فالموريسكيون يقاسون من الجباية غير القانونية بصفة  
دائمة، كما يعانون من كل أشكال سوء المعاملة، ويتعرضون لأعمال  
السطو والنهب، كذلك تتعرض للنساء إلى انتزاع الحجاب فى  
الشوارع... إلخ. وفى ظل تلك الظروف عقدت جمعية الكنيسة الملكية  
(نوفمبر - ديسمبر ١٥٢٦) اجتماعاً فى غرناطة، كان بمثابة المرجع  
الأساسى الذى يستعان به لاتخاذ قرارات من شأنها وضع نهاية

للالتهابات التي يتعرض لها الموريسكيون، ووضع الخطط التي تحقق عمليات التنصير. في الوقت نفسه تم توسيع نطاق القوانين السابقة وتوحيدها للتصدي للثقافة الإسلامية، كما تقرر إدخال محكمة التفتيش.

كل ذلك تضمنته فتوى اضطلع بها الدكتور غالنديث دي كارباخال وتتاول ما يلي : أولاً تحديد الطقوس والشعائر الموريسكية والتي ينبغي استئصالها. ثانياً تحديد واجبات المطران والأخبار. ثالثاً الإعلان عن إدخال محكمة التفتيش في مملكة غرناطة. رابعاً وخامساً، توجيه الكهان والضباط غير الكهنوتيين حتى لا يتعرض الموريسكيون للإهانة أو لعمليات السلب والنهب. أي أنه مزيج من استعمال اليد القوية والإجراءات القمعية، ومن إجراءات تكفل الحماية وتبدو رحيمة. وعموماً، فإن ما تنطوي عليه الفتوى أن كل ما هو مخالف عن عالم المسيحي القديم في الدين، أو في العادات، أو في العقلية أو في اللغة كان يقع تحت طائلة العقاب الصارم.

ولكي نستوضح الأمور بصورة أفضل فإننا نرجع إلى فترة ما بعد الاستيلاء على غرناطة مباشرة، عندما شرع الراهب هرناندو دي تالابيرا، كبير أساقفة غرناطة في القيام بتنصير المسلمين ووعظهم، لتحقيق الاندماج شيئاً فشيئاً، حيث قام بإعداد كهنة يتحدثون

بالعربية، ويظهرون بالمظهر المثالى الذى يتناسب مع وضعهم. أبدى تالابيرا احتراما لعادات المسلمين واحتفالاتهم، مثل حفلات السمبرا zambra (حفلات غنائية وموسيقية)، وبل وصرح بها فى احتفالات عيد القربان. ولما قُيام ثيسنيروس باتخاذ سلسلة من الإجراءات المتشددة والسريعة فقد كان له علاقة ببعض الحيازات الملكية وبجبل دار فى إسبانيا فى ذلك الحين بشأن الموريسكيين بل وبالهنود فى أمريكا أيضا. الأمر كان يتعلق بإيضاح إلى أى مدى كان الدين مجرد عقيدة، بمعنى أنه كان عبارة عن معتقدات وطقوس، بمقدورها أن تفرض نفسها على غيرها من العادات الصحية والغذائية، وعلى طريقة أخرى للملبس، أو على لغة أخرى، أو على هيكل عائلى آخر؛ أى أن الدين كان أكثر من هذا، وأن التحول الدينى كان يعنى تحولاً كاملاً فى كل السمات الثقافية لمن تحول عن دينه إلى دين آخر.

بدأ الموقف المسيحى يحنح إلى القضاء نهائيا على كل ما يتعلق بالثقافة الإسلامية اعتبرا من أوئل القرن، وذهب إلى التعميم الشامل للغة الإسبانية، وإلى التنصير الكامل. ويمكن تأريخ المراحل المهمة فى مسيرة هذا التطور، وهى لا تتعلق بالكنيسة وبالأسقف تالابيرا وحدهما، بل تتعلق أيضا بالجيل الأول من الغزاة والنبلاء الغرناطيين. كان أول ماركيز فى مونديخار Mondejar قد مات عام ١٥١٢. ومنذ ذلك الحين أخذ وضع نبلاء غرناطة فى



التراجع أمام المسؤولين بمحكمة غرناطة، وكان هؤلاء يتصدون للدفاع عن مصالح تختلف عن مصالح النبلاء (خاصة فيما يتعلق بتوحيد أسلوب تطبيق القانون والتشدد في تطبيقه). لم يكثر هؤلاء بمدى تمسك الموريسكيين بعاداتهم أو بملبسهم أو باللغة التي يتعاملون بها، فقد بدوا أكثر مرونة، وغالبًا ما كانوا يعتبرون الإجراءات التي كان يتخذها المسؤولون بالمحكمة والكهنة، إنما هي إجراءات غير مناسبة، بل إجراءات هزيلة. وكانوا يؤيدون حقيقة أولئك الذين كانوا يعتبرون أن طريقة اللبس التي يتميز بها الموريسكيون لا علاقة لها بالدين إلا أن كارلوس الخامس بدا في غرناطة في عام ١٥٢٦ أكثر تساهلاً، وتوصل الموريسكيون إلى اتفاق مع الملك يقضى بالآتي : دفع مبلغ كبير من المال مقدماً، استطاعوا به تعطيل تنفيذ الإجراءات الخاصة بمنع اللغة والتوقف عن ممارسة العادات، كما توصلوا إلى عدم تعرض محاكم التفتيش لهم بمصادرة ممتلكاتهم. وتسبب التكاسل في أن تكون كل الإجراءات مجرد حبر على ورق.

جاءت بعد ذلك مرحلة سادها هدوء نسبي ؛ فقد تعايش الموريسكيون والمسيحيون القدامى على مدى العقود الثلاثة التالية في ظل القواعد والأسس التي وضعت عام ١٥٢٦، وبدا اتجاه المسيحيين ينحو إلى الاندماج والتكيف أكثر منه إلى اللقمع. ومع ذلك لم تطبق جميع الاتفاقات التي أبرمت في عام ١٥٢٦، وذلك بسبب دأب

محكمة التفتيش على مطاردة الموريسكيين فى فالنسيا منذ عام ١٥٢٨، وفى غرناطة عام ١٥٢٩، وبذلك كانت حملات التصير هى السمة المميزة لتلك الفترة.

وضعت المجالس النيابية الأسس فى قشتالة على النحو التالى :  
فى سيغوبيا Segovia عام ١٥٢٣، وفى بلد الوليد valladolid عام ١٥٣٧، وفى أراغون ومائثون Aragon y Manzón عام ١٥٢٣.  
وعلى الرغم من أن الضوابط اقتصرت على حسن النوايا نظريًا، ولم تخرج إلى حيز التنفيذ (الزيارات الرعوية للكنائس القروية "مثلًا") بذلت جهود تبشيرية وتربوية كبيرة بلا توقف، استهدفت الموريسكيين. خصصت جلسات مجمع وادى آش Gudix للكنسية، التى دعا إليها الأسقف مارتن دى أياالا Martin de Ayala، جهودها لقضية الموريسكيين. ثم أصدرت قرارات من شأنها أن تقضى على الممارسات الثقافية، وتناولت مستويات التربية الدينية بالتحديد، والطرق التى تتبعها، كما تناولت أيضًا نشاط الكهان... إلخ وأيضًا أنشئت مدارس خاصة بالموريسكيين، وأمر أسقف غواديكس، مارتن دى أياالا، بوضع "منهج للعقيدة المسيحية باللغة العربية"<sup>(٥)</sup>. كانت الجهود كبيرة ومستمرة، وعينت السياسة الملكية متخصصين حقيقيين

---

(٥) لدينا نسخة من هذا الكتاب وهو مترجم بشكل حرفى يدعو إلى الإضغاط. (المراجع)

فى القضية الموريسكية لهذا الغرض، جميعهم من كبار رجال الدين المتميزين مثل أنطونيو دى غيبارا Antonio de Guevara وغاسبار دى أبالوس Gaspar de Avalos، ومارتين دى أايالا Martin de Ayala السالف ذكره، وكان هؤلاء هم القائمون على سياسة الاندماج أو التكيف، وقاموا فيما بعد بدور لا يستهان به فى ترنتو Trento.

وفى الفترة نفسها قامت فى فالنسيا خطة تبشيرية استهدفت الموريسكيين، وذلك بتشجيع من جانب أنطونيو راميريث دى هارو، وانطلقت تلك الخطة عن طريق شبكة من كنائس القرى. وهذه الخطة كانت أكثر اعتدالاً من الخطة التى وضعت للفرنسيين. ونجحت الاجتماعات التى عقدها مجلس نواب فالنسيا فى أن تحصل من كارلوس الخامس على امتيازات واختصاصات مختلفة، من شأنها أن تعد من عمليات مصادرة الملكيات، والعقوبات التى كانت تفرضها محكمة التفتيش.

تحدد دور محكمة التفتيش تجاه الموريسكيين بصفة خاصة فى مجلسي طليطلة ومدرید عامى ١٥٣٩ و ١٥٤٢، وقد عقد مجلس مدرید على أساس ما جاء فى مجلس فالنسيا التنبأى فى العام نفسه. وقد حصل راميريث دى هارو فى ذلك المجلس على مهلة لا تتدخل خلالها محكمة التفتيش، بلغت ستة عشر عاماً، يجرى خلالها تربية وتوجيه الموريسكيين. وفى طليطلة تم بحث مطالب موريسكي

غرناطة، التي طالبوا فيها بالحد من مسلك محكمة التفتيش، على أن تجرى محاكماتهم على إقلمة الاحتفالات الدينية الرئيسية، لا بسبب الممارسات الثقافية، ورفض المجلس الطلب الخاص بالحد من الإجراءات، باستثناء متابعة حفلات السميرا، طالما لم تتضمن الدعاء لمحمد.

وعموماً جنح الإمبراطور خلال تلك الفترة، وتحت ضغط المشاكل في ألمانيا، وبسبب احتياجه إلى الأموال، إلى السماح بقسط من التنازل لفترة معينة، وكان ذلك يتطلب في الغالب تعويضاً مالياً. وهكذا، وبالإضافة إلى التنازلات التي منحت للفرنسيين، كان مؤيذاً لإقرار المطالب التي تقدم بها ثلثة ماركيز مونديجار Mondejar عام ١٥٤٣ في غرناطة، ووافق أيضاً على إصدار العفو عن الجرائم دون حاجة إلى مصالحة، وكان لهذا الأمر أهميته، لأنه كان من السائد أنه في حالة إتمام المصالحة مع الموريسكيين بعد ارتكابهم لجريمة ممارسة الشعائر الإسلامية، ثم محاكمتهم أمام محكمة التفتيش، فإنهم يعتبرون من محترفي الإجرام إذا ضبطوا في جريمة مماثلة ؛ وبالتالي يمكن تنفيذ حكم الإعدام فيهم. أيضاً منع مهلة مداها خمسة وعشرون عاماً لا تصدر فيها الممتلكات ولا تطبق فيها عقوبات نقدية، مقابل دفع مبلغ مادي، وقد ووجه ذلك بمقاومة من جانب محكمة التفتيش ومن جانب البابا.

ومع ذلك، فإن العناد الذى كانت تصطدم به كتلا الطائفتين والصراع على المصالح التى كانت وراء مختلف أجهزة السلطة (الكنيسة، والبابا، والنبلاء، والتاج) كل ذلك كان يتجه إلى أن يطفو على السطح عندما تسنح أدنى فرصة. مثال لذلك تمثل فى اجتماع عقد فى طليطلة، خلال شهرى فبراير ومارس عام ١٥٣٨، لدراسة مطالب المورييسكيين فى غرناطة من محكمة التفتيش. ولم يحصل هؤلاء من مطالبهم الكثيرة سوى على التمييز بين المهرجانات أو الاحتفالات الإسلامية واليهودية. (فقد كانت التهم توجه دون تمييز)، كما صرحوا بحفلات الممبىرا. لم تتوفر الرغبة فى منح الأقلية المورييسكية أى تنازلات، وكان كل من يتجرأ على الدفاع عنهم، يواجه بمعاملة تفلو من أى اعتبارات مثل ما حدث لماركيز موندىخار Mondejar شخصيا .

اتسمت الفترة التى بدأت عام ١٥٢٦ بحالة من التوازن الصعب وغير المستقر، حالة من الوضع الراهن تم كسرها فى أعوام ١٥٥٥-١٥٦٨، لما لوحظ أن الفجوة التى كانت تفصل بين الطائفتين، على الرغم من سياسة الاندماج، وعلى الرغم من المبالغ التى كان يدفعها المورييسكيون لكى يتركوا فى أمان، قد ازدادت اتساعا. أثار ذلك الغفيل الأحقاد بين السلطات المسيحية، وأقرز إحساسا بأن الجهد الذى بذل كان هباء، وبالتالي يتعين اتخاذ إجراءات

أكثر قمعية. وانتهت فترة التسامح النسبي خلال فترة ما بعد عام ١٥٢٦ بوصول فيليبي الثاني إلى العرش عام ١٥٥٥ تقريباً، وبتصاعد السيطرة الإسلامية على البحر المتوسط.

### القمع والطرد :

أصدر فيليبي الثاني في عام ١٥٦٧ مرسوماً تضمن اتخاذ إجراءات قمعية، استمرت وقتاً طويلاً، كما رأينا ، يحظر على الموريسكيين في غرناطة استخدام اللغة العربية، حديثاً أو كتابة، ويمنع تداول الكتب أو الوثائق المحررة بالعربية، أيا كان محتواها. ويحظر عليهم ارتداء ملابسهم التقليدية ، "وما يدعى باللباس الموريسكى"، كما يحظر على النساء تغطية جزء من الوجه، ولا يستخدمن الحناء في نقش الأيدي أو الأقدام، أو في صبغ الشعر، ويحظر عزف الموسيقى الموريسكية في حفلات عقد القران والزفاف. أيضاً حرم عليهم استخدام الحمامات، أو استعمال أسماء وألقاب عربية، وصدرت الأوامر بأن يترك الموريسكيون أبواب دورهم مفتوحة، إضافة إلى منعهم من تملك العبيد. وقد أثار ذلك ذهولاً كبيراً في غرناطة.

أدى هذا المرسوم إلى ظهور نص اكتسب أهمية غير عادية، تمثل في عريضة قدمها النبيل الموريسكى نونيث مولاي إلى محكمة

غرناطة أكد فيها بالحجج أن اللباس الموريسكى لا يرمز إلى الدين، ولكنه شكل من أشكال التنوع أو السمات الإقليمية الخاصة بالمنطقة، إذ يختلف اللباس الغرناطى عن اللباس القشتالى أو القاليسى. وأن العربية لا تعنى الإسلام، لأن المسيحيين فى الشرق يتحدثون العربية، وأن وضع الغرناطيين للغوى، إنما هو علامة تميز إقليمية شأنهم فى ذلك شأن القطلونيين أو الجليقيين Gallegos، فهم يتحدثون بلغة مختلفة دون أن يكون لهذا علاقة بالعقيدة. إذن كانت هذه محاولة من جانبه، أراد أن يفصل فيها تلك المعالم الثقافية الغرناطية، عن الهوية الدينية، لكى يجمع الموريسكيين فى هوية إقليمية لا تتناقض مع المسيحية على الإطلاق، وأراد أن يوضح أيضا أن الغرناطيين لم يكونوا متفردين، لأن أبعاد التباين واضحة فى اللغات، أو الأزياء، أو العادات بين مختلف أقاليم إسبانيا، وشدد كثيرا على أن الموريسكيين وعاداتهم "ينتمون إلى الأرض". وأشار إلى أنه من الصعوبة بمكان تغيير الاسم على وجه الخصوص، لأن ذلك يعنى ضياع الأسر، والأنساب، أحد أركان الهوية الموريسكية، وكذلك الارتباط بالجماعة. ويمنع اللغة أيضا سوف تضيع الوصايا، ومحركات الأرضى، والمعقود. فهل يتساوى الجميع بدون نسب وبلا ميراث أو عبيد؟ هكذا سجل الفيل للموريسكى احتجاجه. وإن هذا المرسوم فى مجتمع معروف بتعدد الطبقات، كالمجتمع الإسبانى

المعاصر، من شأنه أن يحكم على الموريسكيين بالتهميش وجعلهم في أدنى طبقات المجتمع إضافة إلى محو سماتهم الثقافية الخاصة وإلى الأبد<sup>(\*)</sup>. إلا أن أحدًا لم يعرفه أى اهتمام.

كان ذلك المرسوم بمثابة الشرارة التي أوجت نيران حرب البشرات في عام ١٥٧٨، ذلك الإضراب المسلح الذي قام به الموريسكيون في الجبال من غرناطة إلى المرية، أدى إلى حرب أهلية غاية في العنف بين كلا الطرفين، استمرت طوال عامين. وبات من الضروري أن يتدخل جيش السيد خوان دي أوسوريا لكي يقضى على ذلك التمرد، وانتهى الأمر في أواخر عام ١٥٧٠ إلى إقصاء جميع موريسكي غرناطة إلى قشتالة. وأسفرت عملية الإقصاء تلك عن سقوط أعداد كبيرة من الموتى، نظرًا لتنفيذها في أسوأ ظروف جوية من شتاء (١٥٧٠-١٥٧١) ضد سكان معدمين أنهكتهم حرب عامين متواصلين.

تشتت موريسكيو غرناطة في مجموعات صغيرة، في أراضى قشتالة، وانتقوا بمكان من "الموريسكيين القدامى" وهم أقل إثارة للشغب، ووصلوا إلى مرحلة متقدمة من الاندماج والتآلف مع المجتمع المسيحي والقشتالي. وأسفر التقاء الموريسكيين الفرنسيين

---

(\*) النص "الكامل" لمذكرة فونبيت مولاي موجود في كتاب مرقنديس غارثيا أريبال "الموريسكيون الأنطلسيون" ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣. (مراجع)



بالموريسكيين القدامى عن صراعات كبيرة، أضافت إلى المشكلة الدينية مشكلة اجتماعية، ترتبت على قدوم جماعات محطمة ومعدمة تماماً، كانت غريبة بل ونذيراً يهدد القشتاليين. أدرك الموريسكيون القدامى أنهم يحيط بهم ذلك الرفض، وتعرضوا لموجة من قهر محكمة التفتيش اعتباراً من عام ١٥٧٠. لجأت محكمة التفتيش إلى استخدام أشد وسائل العنف ضد الموريسكيين طوال النصف الثاني من القرن السادس عشر وخلال سنوات ما قبل الطرد . مارست قهراً لم يستطع أحد الفكك منه في أى مكان، فهي لم تستهدف وأد الهرطقة فحسب، بل استهدفت تقنيات الصلوات العائلية، وكسر تلاحم الجماعات. تراوحت أحكام محكمة التفتيش على الموريسكيين (فيما عدا نسبة ضئيلة جداً ألقى بها في المحرقة) ما بين الغرامات المادية ومصادرة الممتلكات. وكانت عمليات الإبلاغ التي كان يدلى بها المتهمون تحت وطأة التعذيب عن ذويهم وجيرانهم، وكذلك عمليات توقيف طبقة الصفوة، إضافة إلى الأوضاع الاقتصادية المتردية، مع حالات الترويع التي أثارها محكمة التفتيش، كل ذلك كان من الأسباب الرهيبة والمدمرة للجماعات الموريسكية.

وفضلاً عن ذلك، فإننا كنا في أسوأ سنوات المواجهة مع الأتراك، حيث يتطابق ما يشكله هؤلاء من تهديد مع ما يشكله الموريسكيون، أو بالأحرى ما يشكله الغرناطيون والغالنسيون. فقد صدرت أوامر في عام ١٥٧٥ بالألا يصرح للموريسكيين في فالنسيا،

بحمل أى نوع من أنواع السلاح. وكانت عمليات التحرش التى كان يقوم بها قراصنة الشمال الإفريقى على السواحل الشرقية تشغل كلاً من السلطات والسكان المسيحيين المحليين، وكان هؤلاء القراصنة يسهلون للموريسكيين عمليات الهروب، مقابل التواطؤ معهم لإرشادهم إلى مفاخذ ينفذون منها.

اندلعت حرب فى أراغون مع الموريسكيين (عمال الأراضى المنخفضة من شاطئ نهر الإبرو، عام ١٥٨٥) وبين الرعاة المسيحيين فى الجبال. وكان للموريسكيون قد أجروا اتصالات وتحالفات مع البروتستانت فى إقليم بيرن Bearn الفرنسى. ازداد ذلك الوضع تدهوراً وتأججت الحرب نتيجة تعالى أصوات جماعات من الخبراء بالشئون العامة وهم من نسميهم فى أيامنا هذه بالقوميين المتطرفين.

بدأت فى أواخر عقد ١٥٨٠ مناقشات حول إمكانية اتخاذ قرار بشأن طرد الموريسكيين فى إطار جلسات مختلف المجالس واللجان. فقد كان الخوف والغضب قد انعكسا على سلسلة من الأسباب والذرائع بمشروعية ذلك الإجراء الذى ما زالت هناك عشرون سنة أمامه حتى يتم تنفيذه، وهذه الذرائع والأسباب هى : أن الموريسكيين غير قابلين للتكيف، وأنهم يكرهون كل ما هو مسيحى، وأنهم لم يدينوا بالولاء للملك وإنما يتحالفون مع الأتراك ومسلمى شمال إفريقيا، وبالتالي فإنهم يشكلون خطراً على توازن المجتمع

المسيحي، وأنهم لن يقبلوا التكيف مع العادات وأسلوب الحياة الذي يتميز به المجتمع المسيحي، ومع ذلك كان عدد كبير من موريسكي القشتاليين، وإكستريمادورا، ومرسيه، بل وفي أراغون، وحتى غرناطة، قد تبلور وتكيف تمامًا.

كان موضوع الطرد قد تم طرحه ومناقشته باعتباره احتمالاً ممكناً، في مجلس الدولة في لشبونة، وذلك في عام ١٥٨٢. كان مجرد فكرة، لاحتاج نضوجها لفترة طويلة. ولقد صدر أول مرسوم بالطرد عام ١٦٠٩، وتم تطبيقه بالطبع على موريسكي فالنسيا. وخلال الفترة من ١٦١٠ إلى ١٦١٤، تم طرد جميع الموريسكيين من شبه الجزيرة، كان آخرهم موريسكو ريكوتي Ricote ومرسية، وكانوا قد اعتنقوا المسيحية طواعية من قبل بموجب مرسوم عام ١٥٠٢ الذي أصدره الملك الكاثوليكيان (فرناندو وإيسابيل). ويقدر عدد المطرودين بنحو ٣٠٠٠٠٠ موريسكي، انتهى المطاف بعدد كبير منهم في بلدان جنوب البحر المتوسط وهؤلاء هم موضوع الفصل القادم.

### مقاومة طمس الهوية :

سبق أن أشرنا إلى مقاومة الموريسكيين، والتي تجلت في شكل ثورة مسلحة وفي عمليات الهجرة. وهنا سوف أركز على صورة

أخرى من صور المقاومة إزاء للضغوط التي تمثلت فى عمليات التبشير والتتصير ، على التمسك بالملاح الثقافية والدينية الإسلامية.

فقد ظلت أعداد كبيرة من الموريسكيين تمارس شعائر الدين الإسلامى خفية، وهو ما عرف بالإسلام الخفى. فقد كُبان يتردد أن الموريسكيين يؤمنون بشرعية التمسك بالدين الإسلامى سراً، وإن كانوا يؤدون الشعائر للمسيحية ظاهرياً، وذلك استناداً إلى مبدأ "التقية" الإسلامى الذى يجيز إخفاء العقيدة فى حالة التعرض لضغوط خارجية ، فقد اضطرت جماعات دينية أخرى فى إسبانيا تحت وطأة محاكم التفتيش إلى إخفاء عقائدها وإلى تشريع ذلك، مثل اليهود المنتصرين، والبروتستانت والنورانيين iluminados وحتى الإبراسميين erasmistas .

ولكن تلك السرية أثارت بالفعل مشاكل خلقية وقانونية. ونرجع هنا إلى وثائق توفرت لدينا، وتتضمن استشارات طرحها مدجنون وموريسكيون، حول إمكانية الحياة فى ظل الظروف الجديدة التى تفرضها السلطة المسيحية، فى الوقت الذى ينتمون فيه إلى مجتمع المؤمنين. وقد طرحت هذه المعضلة نفسها أيضاً بالنسبة للمهاجرين إلى شمال إفريقيا الذين كانوا يرغبون فى العودة إلى شبه الجزيرة، بعد أن تملكهم الإحساس بالعجز عن التكيف. فى عام ١٤٨٤،

أى قبل الاستيلاء كلية على غرناطة، قامت جماعة من المسلمين ممن سبق أن هاجروا إلى المغرب، واكتشفوا أن الوضع هناك غير موات لهم، بطرح استشارة شرعية حول إمكانية العودة إلى إسبانيا، من وجهة النظر الدينية، وبعد ذلك بقليل أى فى عام ١٤٩٥، طرحت جماعة أخرى من المسلمين ممن كانوا يرغبون فى البقاء بالمنطقة التى استولى عليها المسيحيون مؤخرًا، سؤالاً مماثلاً. وجاءت الإجابة عن كلا السؤالين ضمن فتويين أفتى بهما مفتى مدينة فاس للمغربية أحمد الونشريسي المتوفى عام ١٥٠٨، وكان متشددًا جدًا مع الأندلسيين : "البقاء فى بلد استولى عليه للكفار محرم بحكم الدين، كتحريم أكل الميتة، والدم، ولحم الخنزير".

وبعد بضعة أعوام، أصدر مفتى مدينة وهران للجزائرية فتوى أخرى إلى المسلمين الإسبان الذين اعتنقوا الدين للمسيحي بمرسوم . كانت هذه الفتوى على عكس ما سبقها ترمى إلى تهدئة أولئك الذين أصبحوا فى مثل ذلك الوضع الحرج ومواسلتهم، حضيم فيها على أن يكتموا إسلامهم فى القلوب، وألا يعلموا أطفالهم الدين الإسلامى حتى يبلغوا سن الحلم، ويبلغوا من النضج ما يجعلهم قادرين على كتمان ما يبطنون<sup>(٩)</sup>.

---

(٩) انظر النص الكامل للفتوى بوجمعة مفتى وهران فى كتاب غارثيا لريبال الموريسكيون الأندلسيون - ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣ . (المراجع)

وأصدر علماء المذاهب الأربعة الإسلامية في القاهرة عام ١٥٠٠ تقريرا أربع فتاوى حول أوضاع المسلمين الذين يعيشون تحت سلطان حكومة مسيحية في إسبانيا. وفيما يبدو أن تلك الفتاوى صدرت بناء على طلب بعض الموريسكيين الفالانسيين لدى مرورهم بالقاهرة، وهم في طريقهم إلى مكة لتأدية فريضة الحج. ونصت هذه الفتاوى على وجوب هجرة المسلمين في أقرب فرصة ممكنة. فلا يجوز للمسلمين الإقامة بين الكفار، ولا ينبغي أن يقسموا قسم الولاء لسلطانهم؛ فإقامة المسلمين بين الكفار لا تمكنهم من أداء بعض الشعائر الإسلامية الأساسية. أي أن الإقامة بين الكفار شأنها شأن أكل الميتة والدم ولحم الخنزير، والاتصال بالكفار في حد ذاته إنما هو مصدر للعدوى. ولما وصل الموريسكيون المطرودون إلى شمال إفريقيا في القرن السابع عشر، شعر السكان المحليون بغضاضة في اعتبارهم مسلمين.

كان مستوى الثقافة العربية الإسلامية لدى مختلف الجماعات الموريسكية متباينا، كما هو الحال بالنسبة للمدجنين، بين منطقة وأخرى، ومن عصر إلى عصر. فالمستوى في فالنسيا غيره في قشتالة، وبين أبناء جيل ما بعد عام ١٥٠٢، يختلف عما كان عليه من سبقوا عملية الطرد التي تمت عام ١٦١٠. فالموريسكيون الفالانسيون والغرناطيون كانوا يتحدثون العربية، وكانوا يخضعون لعمليات الختان، أما بالنسبة للقسطلانيين فكان حالهم غير ذلك، وبالنسبة

للغرناطيين الذين أبعادوا إلى قشتالة كان يتعين عليهم التوقف عن استخدام اللغة العربية وعن إجراء عمليات للختان بعد جيل واحد. علاوة على ذلك يتعين أن نضع في اعتبارنا أن القطاع الأكبر من المصادر المتوفرة لدينا والتي نتعرف من خلالها على معركة مدى الاحتفاظ بالإسلام بين الموريسكيين، فهي ما أسماه ماركيث بيانوييسا Marques Villanueva "بالمصادر المسمومة" : وثائق محاكم التفتيش، على سبيل المثال، أو تقارير ومذكرات أولئك الذين كانوا يبررون عمليات طرد الموريسكيين<sup>(\*)</sup>... إلخ.

كانت محكمة التفتيش، إذا أحسن الظن بنواياها وأساليبها، تحاكم الموريسكيين المشتبه بهم، أو من كان يثبت أنه من التيار الإسلامي "قط"، وكانت تقدم تفصيلاً للممارسات الدينية، والصلوات، والعقائد، والثقافة، إضافة إلى نوايا الموريسكيين الذين كانوا يمثلون للمحاكمة. لقد ذكرت تلك الوثائق (إضافة إلى مصادر أخرى سوف نتعرض لها فيما بعد، وخاصة الأدب الألفمبادو Aljamiado) أن قطاعاً كبيراً من السكان الموريسكيين كان يتمسك بالممارسات الإسلامية (بما فيها ممارسات كان يصعب أدؤها في تلك الظروف، مثل الحج إلى مكة) في إطار كيان أسرى وجماعي، وكانت تحرص على رعاية الجماعات. فقد أكد الكتاب المؤيدون لسياسة القمع

---

(\*) انظر كتابه "القضية الموريسكية من وجهة نظر لغوي" ترجمة عائشة سويلم، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥. (المراجع)

المتطرفة والطرء، أن جميع الموريسكيين لا يزالون مسلمين كما كانوا قبل التتصير، بل وأضافوا أيضا بعض الحجج (مثل أنهم كانوا أسرع تكاثرا) وهي حجة لم تثبت عن طريق مصادر أخرى، لكنها أصبحت معلومة متداولة.

لم يترك الموريسكيون المناسبات والمتمسرون إلا دلائل نادرة للغاية في الوثائق، ولهذا يسهل بموجبها تكوين فكرة مشوشة عن الموريسكي "غير المتكيف" والمسلم المتمسك على الرغم من كل شيء. فالحقيقة لابد أن تكون شديدة التعقيد، كما سوف يتبين لنا عندما كان لزاما على المطرودين أن يندمجوا في المجتمعات الإسلامية بالشمال الإفريقي. كانت مقاومتهم ثقافية واجتماعية، فضلا عن كونها دينية، ساعد عليها رفض التكيف مع مجتمع الأغلبية الذي دأب بدوره على أن يمارس ضدهم سياسة اتسمت بالتمييز والنهميش والمطاردة. في ذلك الوقت كان يتعين عليهم أن يتعايشوا مع اللغة، وأن يحاكيوا العادات والتقاليد السائدة في ذلك المجتمع، لكي لا يفتن أحد لوجودهم<sup>(\*)</sup>.

لقد اتفهم الموريسكيون، مثلهم مثل المدجنين، في غمار عملية دفع ثقافي، من شأنها أن تجعل منهم نموذجا مغايرا لأجدادهم

---

(\*) لا أرى هل تبني غارثيا لرينال هذا الرأي القائل بأن الموريسكيين تعرضوا لميلتسي قلعة ثقافية إندلسية في إسبانيا والأخرى في شمال إفريقيا؟ هذا الرأي تقول به لويش لوبيث بارالت، وقد عارضنا هذه النظرية تاملنا. انظر : د. جمال عبد الرحمن كمن حول الجنس الموريسكي من تونس... المجلة التاريخية المغربية ، المجلد ٧٧ - ٧٨ ، مايو ١٩٩٥ . (المراجع)



الأندلسيين. هذه العملية التثقيفية لا ينبغي أن نفصرها استنهاذاً بمعالم الثقافة الأندلسية، أو الثقافة الإسبانية، ولا أن نعتبرها بالنتالي وكأنها انهيار أو تدهور، بل باعتبارها صورة من صور المعايضة الضاربة في التأصيل قادرة على دمج عناصر من كلتا الحضارتين، بما يفرز شيئاً جديداً ومغايراً.

وربما تمثل أوضح مثال لذلك التعاضد أو التكامل، في الأدب الألمجاديو aljamiado، وهو أدب كتب باللغة الرومانشية (الإسبانية) بحروف عربية، تركزت فيه الألفاظ والمفاهيم الدينية العربية بشكل عام، وكذلك فقرات كاملة من القرآن. أخذت العجمية من العربية أيضاً البناء التركيبى، والنمطى، والمعجمى، وما يتعلق بالمدلولات . إنها لغة خاصة، البديل الإسلامى للغة الإسبانية. والأدب الألمجاديو أدب ذو طابع تعليمى، يغلب على موضوعاته الطابع الدينى والتشريعى، ويستهدف نشر أسس الشريعة والعقيدة الإسلامية والمحافظة عليها بين الموريسكيين، كما يتناول تاريخ أبطال من التاريخ الإسلامى، وحكايات حماسية ترجع إلى فجر الإسلام، إضافة إلى قصص الأنبياء... إلخ.

أى أنه أدب يمكن أن نطلق عليه اسم "التاريخ المقدس"، وتضمن إلى جانب هذه الموضوعات، موضوعات عن الطب

والسحر والنبوءات وأقوال ومناهج تربوية وخطط مسارية، أى توجهات تحض على الهرب من إسبانيا. وتضمن أيضًا حكايات مثل قصة غراميات باريس وديانا المستوحاة من الأدب الإسباني المعاصر فى ذلك الحين، وكان يعرفها الموريسكيون. ولما طرد الموريسكيون إلى شمال إفريقيا توقفوا عن الكتابة "بالألفباندو" ولكنهم احتفظوا بأدبهم الخاصة باللغة الإسبانية، اللغة التى كتبوا بها رسائل ذات طابع ديني، وأعمالاً أدبية يتجلى فيها التأثير الإسباني، ومقالات دينية ساعدت على عودة الموريسكيين المطرودين إلى الإسلام. وقد ترجم الموريسكيون المطردون كتباً إسبانية إلى اللغة العربية، منها على سبيل المثال كتاب عن المدفعية<sup>(٥)</sup>، وموضوعات تقنية حظيت باهتمام البلاد المضيفة.

ثمة مثال آخر مهم للمعايشة، هو ما يسمى بإنجيل القديس برنابا، وهو إنجيل مختلف كتبه موريسكيون، ويتناول تصحيحاً لرسالة المسيح طبقاً للمفاهيم الإسلامية، والتى تتركز حول صفته الإلهية، وتؤكد أن محمداً هو المسيح المخلص الذى تحدث عنه الكتب المقدسة. وفى الخط نفسه، ولكن بشكل أكثر شهرة وأهمية لما كان له من ردود فعل كبيرة، كان موضوع الكتب الرصاصية.

---

(٥) هو كتاب "الز والمنافع للمجاهدين فى سبيل الله بالمدافع" ترجمة الموريسكى أحمد بن قاسم المحبرى. (المراجع)

ففى عام ١٥٨٨ ترقب على انهيار منئمة المسجد القديم فى غرناطة، للكشف عن رق قديم من الجلد مكتوب عليه باللغة العربية، وتبع ذلك الكشف عن مجموعة من الألواح الرصاصية بعد بضعة سنوات منقوش عليها بحروف عربية غريبة، إضافة إلى اكتشاف بعض رفات القديسين. لقد كان اكتشاف وثائق هذا الكشف المزعوم القديمة، مجرد عملية تزيف قام بها متقو الموريسكيين ؛ فهى تثبت أن عرباً كانوا موجودين فى غرناطة فى زمن الحواريين، وأنهم اعتنقوا المسيحية حقاً وفعلاً على يد سانتياغو Santiago شخصياً، وعلى أيدى تلاميذه.

لعل الهدف الواضح من عملية التزيف يتمثل فى تجنب الطرد، خاصة أن تنفيذه بات وشيكاً، وذلك عن طريق إبطال مفهوم "المسيحيين الجدد"، لأن الموريسكيين كان يمكن أن يكونوا أقدم فى المسيحية، وأكثر أصالة من أى أحد آخر؛ وأنهم أصحاب الأرض الطبيعيين، حسبما ذكر فرناندو نونييث مولاى Fernando Nuñez Muley فى عريضته. وتضمنت الكتب الرصاصية أيضاً بعض الأنجيل المزيفة التى تعظم من دور السيدة العذراء، وانتهى تؤسلم وتلقى تلك المفاهيم المسيحية التى يصعب على المسلمين تقبلها، ومنها ألوهية المسيح وتقديس الصور. ولم يقتصر التزيف على الموريسكيين وحدهم، ولكنه تم بموجب تواطؤ أو مشاركة شخصيات تابعة للكنيسة الكاثوليكية، ذلك لأنه تضمن أيضاً دفاعاً حاراً عن

عذرية مريم<sup>(\*)</sup>، وعن وصول سانتياغو Santiago ، وكلتا القضيتين كانت تحظى بدفاع شديد من جانب الكنيسة الإسبانية. ولقد أسفر ذلك عن أسلوب خاص للتعلّيش جمع بين مسيحية متأصلة (أو إسلام مقتصر) وبين بعض الأفكار شديدة المناهضة للإصلاح. وقد أثار هذا الموضوع جدلاً كبيراً بين من تصدى له (وعلى رأسهم أسقف غرناطة نفسه) ومن كانوا يصرون على أنها عملية تدليس، جداً استمر طويلاً حتى جنح الفاتيكان إلى اعتباره تزيفاً عام ١٦٣١.

ثمة محاولة مهمة في الخط نفسه، وهى رسالة كتبها الموريسكى الغرناطى ميغيل دى لونا Miguel de Luna، هو ورفيقه ألونسو دى كاستيو Alonso de Castillo، المترجم الخاص للملك فيليبي الثانى، إلى اللغة العربية، والتي تحمل عنوان : القصة الحقيقية للملك دون رودريغو Rodrigo<sup>(\*\*)</sup>، والذان أسندت إليهما الكتب الرصاصية. فقد أكد ميغيل دى لونا أن تلك الرسالة إنما هى ترجمة إلى الإسبانية، لرسالة تاريخية عربية، بينما هى فى الواقع عملية تزيف؛ فالعملية كانت مجرد إعادة كتابة تاريخ إسبانيا (فى عصر

---

(\*) تعرضنا لموقف الموريسكى من عذرية مريم فى دراستنا ثقافتة موريسكى : قراءة لى المخطوطة رقم ٩٦٥٤ بمكتبة مدريد الوطنية المؤتمر العلمى العاشر للدراسات الموريسكية ، زعوان، تونس، ٢٠٠٣ . (المراجع).

(\*\*) نسمى إلى ترجمة هذه الوثيقة المهمة إلى اللغة العربية وربما تُنشر الترجمة قريباً ضمن إصدارات المجلس الأعلى للثقافة. (المترجم)

فيليبى الثانى، فى الوقت الذى كانت تجرى فيه بالتحديد عملية صياغة أسطورة التقويط (goticista) والتي تناولت الملك رودريغو والقوط وكأنهم كانوا بؤرة للفساد والانحراف، وأن الشعب الإسباني هو الذى ناشد العرب لى يمدوا إليه يد العون ويهبوا لإثقاذه وتحريره<sup>(\*)</sup>.

استهدفت الأمثلة الثلاثة المذكورة أن يكون للموريسكيين موقع غير موقعهم، ودور غير دورهم فى التاريخ وفى المجتمع الإسباني، وطرح الإسلام فى صورة غير مناهضة، بل وكأنه نسخة حقيقية نقية وأصيلة وقريبة من المسيحية، ولكن هذا لم يحقق شيئاً. ومن الغريب أن قطاعاً من أشد عناصر الكنيسة الإسبانية تشدداً (تهديداً أولئك المؤيدون لفكرة الطرد) استخدم جانباً من ذلك الطرح، وهو طرح لأفكار من الفقه الإسلامى، مثل أولئك الذين كانوا يقولون إن كلا من اليهود واليونانيين أسدوا للكتب المقدسة فى الأزمان السابقة، وذلك لاستخدامها فى صراعهم ضد الإنسانيين الذين درسوا ونشروا فى تلك العصور إصدارات وترجمات جديدة للنصوص العبرية والإغريقية من العهد القديم والعهد الجديد. وهذه أمثلة تثبت أن ثمة مسيرة امتدت على مدى العصور الوسطى : أقبل يدينون بديانات

---

(\*) انظر قراءة ماركيت بيكوتيا لهذا الموضوع فى كتابه "القضية الموريسكية من وجهة نظر لغوى" ترجمة عائشة سويلم، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥. (المراجع)

مغايرة، تعيش في مناخ واحد، وتتلقى الحوافز الفكرية نفسها، تستولى على أعمال وأفكار معارضيها في الوقت الذي يمكنهم فيه الاستفادة لتحقيق أهداف الديانة التي يدينون بها.

### الموريكيون بعد الطرد

عرف الموريكيون في المغرب بأنهم رفاق مواطنة مع من سبقوهم إلى هناك تحت اسم الأندلسيين، وقد ذهبوا إلى هناك لكي ينضموا إلى صفوف هجرات توالفت في تكفيها على مدى قرن من الزمان.

لقد أسفر التقدم الرابع والحاسم الذي شهده منتصف القرن الخامس عشر، عند استيلاء المسيحيين على مملكة غرناطة، عن موجة طرد استهدفت سكانها الذين تركوا بصمات واضحة على مختلف مناطق شمال إفريقيا. وبلغت تلك الهجرة ذروتها من فالنسيا إلى غرناطة، بعد الاستيلاء على تلك الأخيرة، وكانت بمثابة معبر لمرءوس الصفوة الغرناطيين . كانت عمليات الفرار تجاه الشاطئ الجنوبي للبحر المتوسط مستمرة طوال النصف الأول من القرن الخامس عشر، ولكن تلك الهجرة بلغت ذروتها ثانية أثناء حرب البشريات Alpujarras.

وبصورة عامة، فإنه إذا كان العنصر الأندلسي لم يظهر في المقدمة على الساحة المغربية حتى أواخر القرن الخامس عشر، فإن ذلك لم يكن سوى المصير المنطقي لعملية تطور طويلة، لأن الهجرة إلى المغرب كانت على مدى تاريخ الأندلس، مجرد منفذ للهرب من الاضطرابات الداخلية، وملجأ للمتمردين أو ضحايا النكسات السياسية، لجأ إليه الفقهاء والعلماء لتلقى العلم في القيروان أو تلمسان أو فاس. كذلك كان للمصالح التجارية والسياسية للأندلس ثقل كبير أسهم في إقامة الأندلسيين في المغرب. وكان المغرب بصفة خاصة هو المكان الذي استقبل النازحين نتيجة للحروب المسيحية التي اندلعت في القرن الثالث عشر.

انضم المدجنون والموريسكيون قبل عملية الطرد واللاجئون في ساحل الشمال الإقليمي إلى صفوف القراصنة(\*) في تلك المنطقة، وقاموا بعمليات إغارة دخلوا من خلالها شبه الجزيرة لتخليص إخوانهم في الدين ونقلهم من هناك، وأدى كل ذلك إلى تنشيط أعمال القراصنة، وخاصة في بحر ألبوران Alboran والسواحل الشرقية.

---

(\*) تحدث الموافقة هنا عن نوعين من القرصنة : القرصان الحكومي corsario ، والقرصان الخاص Pirata. كان القرصان الحكومي يحميه تمهيدات دولية وكان لا يحصل بمفرده على الغنائم كلها. عموماً فإن المؤرخين العرب يكرهون لفظ "قرصنة" ويتحدثون عن "الجهاد البحري" وأرى أن هذا الاسم ترجمة مناسبة جداً لكلمة corsario، أما القرصان الخاص فهو مجرد شخص يعمل لمصلحته وربما تورط في الهجوم على أي سفينة بغض النظر عن جنسيتها. (المراجع)



ولقد أكد هؤلاء المواطنون الأندلسيون مدى تطرفهم فى العداء المتأجج نتيجة اقتلاعهم من ديارهم بسبب الحروب، وبسبب ما تطوى عليه صدورهم من أحقاد ضد سكان شبه الجزيرة. هذه الصفات، إضافة إلى معرفتهم بشواطئ شبه الجزيرة، وإلمامهم ببلغة قشتالة أو فالنسيا، وارتدادتهم للزى المحلى الشائع فى تلك المناطق جعل لدخولهم إلى شبه الجزيرة مردوداً فعالاً.

وخلال الفترة ١٦٠٩-١٦١٠، خرجت من إسبانيا أفواج كبيرة من الموريسكيين متجهة إلى فرنسا وإيطاليا، ذلك لأن القرارات التى صدرت فى بادئ الأمر قضت بالآبى صطحب للمهاجرون إلى دول إسلامية أبناءهم معهم. ومن هناك، أى من كل من فرنسا وإيطاليا، ذهب عدد قليل منهم إلى مصر<sup>(\*)</sup> وتركيا، وإن كان للسواد الأعظم منهم هاجر إلى بلدان الشمال الإفريقى، إلى حيث ذهب كل من غادر مناطق الناج القشتالى فى المرحلة الثانية خلال الفترة (١٦١٠-١٦١٤).

جاء النص الذى سوف أتحدث عنه فيما بعد، فى سياق رسالة لمؤرخ مغربى يدعى المقرئ Al Maqqari، وكان معاصراً لعملية الطرد وهى عبارة عن مقدمة موجزة وخاصة بموضوع إقامة

---

(\*) انظر فى هذا الموضوع كتاب د. عبد الرحيم عبد الرحمن ، وثائق المغاربة من سجلات المحاكم الشرعية المصرية فى العصر العثمانى ( ٣ أجزاء ) ، مؤسسة التيمى للبحث العلمى والمعلومات ، زغوان ، تونس. ( المراجع )

الموريسكيين في البلدان الإسلامية التي استقبلتهم.

"خرج الآلاف في الطريق إلى فاس، واتجهت آلاف أخرى إلى تلمسان ، بدءًا من وهران، وقصدت جماعات منهم تونس. وبينما هم ماضين في طريقهم، التقضت عليهم عصابات من اللبدو، وأناس لا يخافون الله في مناطق تابعة لفاس وتلمسان، فاستولوا على أموالهم، ولم ينج من هذه المحنة إلا فئة قليلة منهم؛ هذا على خلاف من اتجه منهم إلى تونس، فقد وصلوا جميعًا سالمين. بنوا هناك قرى وشعابًا في مناطق غير مأهولة، وفعلوا ذلك في سلا ومتيجه Mitiya في الجزائر".

"اتخذ سلطان المغرب بعضهم جنودًا وزودهم بالسلاح وأقاموا هناك في سلا، بينما انصرف آخرون إلى امتحان العمل الحربي النبيل في البحر، باعتباره من الأعمال المشهورة بالنسبة لما يتعلق بالدفاع عن الإسلام، قاموا بتحصين قلعة سلا، وهناك أقاموا قصورًا، وحمامات وبيوتًا، مازالت قائمة حتى الآن".

وصلت جماعة أخرى إلى إسطنبول، وإلى مصر، وسوريا العظمى، وأيضًا وصلت جماعات أخرى إلى مختلف المناطق المسلمة. وهكذا فإن الأندلسيين موجودون حاليًا (طبقًا لترجمة إيبالزا Espalza عام ١٩٩٢)<sup>(٩)</sup>.

---

(٩) تنظر الترجمة العربية لكاتب إيبالزا "الموريسكيون في إسبانيا وفي المغرب"، ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥. (المراجع)

هذه الوثيقة تعد بمثابة تقرير عن الصعوبات التي واجهها الموريسكيون لدى وصولهم ، وذلك إضافة إلى الممارسات الوحشية وعمليات السطو التي كان يتعرض لها المطرودون من قبل أطقم البحارة وملاحى السفن التي كانت تنقلهم إلى الشاطئ في الناحية الأخرى من المضيق. هناك أيضا مجموعة من القواعد والأسس، سوف أ طرحها في الصفحات التالية. اتبع الموريسكيون من حيث المبدأ نموذجا حداثيا مشابهما لما هو متبع في الدول المضيفة، وخاصة في البلدان الواقعة تحت الوصاية، في الجزائر وتونس، والتي كانت تابعة للإمبراطورية العثمانية، وفي المغرب، البلد الوحيد الذي ظل مستقلا عن إسطنبول. أقام الموريسكيون المطرودون، كما أقام من سبقهم اعتبارا من النصف الثاني من القرن الخامس عشر، أقاموا بصفة أساسية في المدن الساحلية (الرباط، وسلا، وتطوان وموسناغانم Mostaganem ، وشرجيل Cherchel، والجزائر، وبجاية Bugia ، وبونا، وبنزرت، وتونس، وطرابلس... إلخ)، وهناك امتهنوا القرصنة ، أى القتال في البحر المتوسط، وفي المحيط الأطلسي (حيث كانوا يعترضون السفن المارة إلى العالم الجديد بصورة مستمرة) ضد المسيحيين، على سفن ترفع علامة السلطة السياسية.

القرصنة هي الوسيلة الدفاعية التي كانت تلجأ إليها الدول التي تقتدر إلى أسطول نظامي، ويقع الجانب الأكبر من موانئها تحت

الاحتلال البرنغالي والإسباني (مازاغان Mazagan وطنجة، وسبنة ومليلة، ومضيق بيليث، ووهران، وحلق الوادي Goleta). تزامن طرد الموريسكيين تحديدًا في عام ١٦١٠ مع احتلال إسبانيا لميناء العرائش المغربي Larache، و كان وجود الموريسكيين في الكيانات الدفاعية وفي جيوش دول الشمال الإفريقي، وخاصة في أجنحة المدفعية، من المظاهر المألوفة بصفة عامة. ولقد أقام الموريسكيون أيضًا في عواصم تلك الدول وفي مختلف مدنها في كنف السلطات السياسية المسيطرة هناك، وكانوا يحيطون بالسلطان وبالبكوات العثمانيين، كما كان يوكل إليهم بمهام إدارية، وعينوا في مناصب المترجمين، كما اشتغلوا بالتجارة والحرف اليدوية... إلخ أيضًا تملكوا أراضى زراعية في محيط المدن التي أقاموا بها ، وعمومًا، شارك الموريسكيون في الحياة المدنية وسط مختلف الأجناس في موانئ البحر المتوسط خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، مع تجمعات أخرى شملت مسلمين ويهود من أصل أوروبي أيضًا. وكانت تلك المدن متعددة اللغات، وإن كانت للغالبية العظمى بها تتحدث العربية. فهناك من كان يتكلم التركية، ومنهم من يتكلم البربرية، إضافة إلى خليط من اللغات السائدة جميعها في دول البحر المتوسط، وذلك يرجع إلى وجود أعداد كبيرة من التجار والأسرى. وقد شارك الموريسكيون في تعدد اللغات هذا، وأصبحت الإسبانية

موجودة في كل مكان نظراً لانتشارهم في مختلف مدن المغرب، وخاصة في مراكش. واستطاع الموريسكيون أن يسيطروا على مساحات كبيرة من الأراضي للزراعة في مختلف الوديان والوديان المغربية وكانت تلك الأراضي تقع دائماً قريبة من المدن التي يقيمون فيها، وذلك تحت حماية السلطة السياسية.

أقام الموريسكيون في تجمعات خاصة بهم بصفة عامة، على هامش مجتمعات الأغلبية كما سبق أن ذكرنا، وذلك على الرغم من تمتعهم بحماية السلطة السياسية، اعتبروا هناك وكأنهم جسم غريب، مما أثار الشكوك في حقيقة إسلامهم. وحاول كثيرون منهم العودة إلى المواقع الإسبانية مثل سبتة، أو مليلة، أو طنجة، أو وهران، حتى لو كان الثمن أن يحيا حياة العبيد. كما حاول بعضهم الإقامة في مناطق أخرى خاضعة للتاج الإسباني، مثل صقلية. وقد علمنا أن كثيرين منهم ماتوا لكونهم مسيحيين مخلصين<sup>(\*)</sup>، أو لإعلانهم ذلك، أو لرفضهم الامتثال لعمليات الختان. وتجمع الموريسكيون في الغالب سواء في محال إقامتهم، أو في أماكن العمل، مع جماعات أخرى في مناطق محيطة بالمدن، مثل من عرفوا بالمارقين (الأسرى الأوروبيين

---

(\*) تتساءل هنا : ما الذي يدفع المسيحي المخلص إلى الهجرة من إسبانيا إلى بلد إسلامي؟ وإذا كانت السلطات الإسبانية شككت في عقيقته المسيحية وطردته، ألم يكن الأحرى به أن يهاجر إلى بلد مسيحي مثل فرنسا؟ (المراجع)

الذين اعتنقوا الإسلام)، واليهود من أصل إسباني المطرودين عام ١٤٩٢، حيث كانوا يتقاسمون معهم استخدام اللغة، والخصائص الثقافية، وخاصة الإسبانية. انتهت الجماعات الثلاثة القرصنة(\*) عملت الجماعتان الأولى والثانية في القرصنة، وفي تسليح السفن وتموينها. أما المجموعة الثالثة فقد تخصصت في إنقاذ الأسرى وتخليصهم، وفي ممارسة التجارة. ولكن هناك أغلبية كبيرة انتهت تلك الحرفة التي تميزوا بها في إسبانيا : الزراعة والري، وزراعة البساتين، فأدخلوا المزروعات والتقنيات التي اشتهروا بها في الوطن القديم، كما تخصصوا في الأعمال الحرفية كصناعة الجوخ والحريز، وفي تصنيع الأسلحة النارية وفنون البناء. وعلى سبيل المثال، احتفظت المطرقات المغربية بما تميزت به مطرقات طليطلة وسلمنكا من رسوم وحليات.

ومع ذلك ، لعبت ظروف مختلف بلدان الشمال الإفريقي دوراً في وجود اختلافات في أسلوب حياة سكانها من الموريسكيين، ولكن بمرور الوقت انتهى بهم الأمر إلى الانخراط كلية في حياة السكان المحليين.

---

(\*) لمعرفة نشاط اليهود في ذلك العصر انظر كتاب غارثيا لوفال وجيرارد وبغرس بين الإسلام والغرب: ترجمة مدوح البستوى، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥. (المراجع)

## المغرب :

للموريكيون الذين وصلوا إلى المغرب، وأقاموا به، أتوا بصفة خاصة ضمن المطرودين من إكستريمادورا، وقشتالة، وأندلوثيا، والتحموا بالفرنطيين الذين سبق أن هاجروا إلى هناك من قبل.

تولت أسرة السعدى مقاليد الحكم في المغرب اعتباراً من منتصف القرن السادس عشر، وقد استمدت هذه الأسرة شرعيتها لکی تمارس السلطة هناك بزعم أنها من نسل النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وبالتالي فإنهم من الأشراف. ولجأت هذه الأسرة المالكة في أكثر من مناسبة إلى عقد تحالفات مع التاج الإسباني، وخاصة مع فيليبي الثاني، وذلك لحماية نفسها من التدخل التركي؛ فالإمبراطورية العثمانية كانت قد وصلت حدودها حتى الجزائر، وتسعى إلى ضم المغرب، وهذا ما كان يثير مخاوف كل من السعدى والإسبان. وفي الوقت الذي كان على المغاربة أن يحموا أنفسهم فيه من التدخل الإسباني، ومن لاحتلال إسبانيا لعدد من موانئها الرئيسية، لجأوا بدورهم إلى العثمانيين.

بلغ حكم آل السعدى أزهى عصوره في عهد السلطان أحمد المنصور (١٥٧٨-١٦٠٣). وقد تولى هذا السلطان العرش على أثر معركة القصر الكبير، التي أنزل المغرب فيها هزيمة نكراء بالجيش

البرتغالي بقيادة الملك سياستيان . كانت البرتغال أيضًا تخطط للتدخل في المغرب، بدأته بغزو سبتة عام ١٤١٥، وواصلت تنفيذ مخططاتها بغزو أو إقامة عدد من الموانئ بالساحل المغربي على الأطلسي، بدءًا من سبتة وطنجة حتى سانتا كروز برأس جوي Gue، أغادير حاليًا، وصافي Safi . وقد تم الاستيلاء على الأخيرين ما بين ١٥٠٣، و ١٥٠٨. كانت تعرف بحدود أو مدن مطلة على البحر، وكانت البرتغال تستخدمها في الحصول على إمدادات القمح مما كان ينتجته المغرب، ومراس للسفن وهي في طريقها إلى جزر الهند الشرقية. أثار وقوع تلك المواقع في أيدي المسيحيين (إسبانيا كانت تحتل مليلة منذ عام ١٤٩٧)، مشاعر الضيق في المغرب، علاوة على وقوف ذلك عائقًا أمام التجارة البحرية. وكانت عملية الخنق هذه من الأسباب التي دعت أحمد المنصور إلى غزو السودان الغربي في عام ١٥٩١، أي بلاد جنوب الصحراء، حيث كانت مناجم الذهب، وحيث الطرق التجارية التي اكتسبت أهميتها منذ العصور الوسطى. لقد تم غزو السودان هذا، بالاستعانة بجيوش تضم مورييسكيين هاجروا أثناء حرب البشرات، بالإضافة إلى من عرفوا بالمارقين<sup>(٥)</sup>، إلى حد كبير.

توفي أحمد المنصور في أواخر عام ١٦٠٣، على أثر إصابته بوباء الطاعون الذي اجتاح البلاد، وبوفاته دخل أبنائه في صراع

---

(٥) قصد المسيحيين الأوربيين الذين اعتنقوا الإسلام. (المراجع)



على الخلافة. إذن، فإن الموريسكيين الذين طردوا في أوائل القرن السابع عشر، جاءوا إلى بلاد اجتاحتهم الطاعون، أنهكتهم حرب أهلية طويلة.

وبوفاة المنصور نصب أحد أبنائه، مولاى زيدان، سلطاناً فى فاس، ونصب آخر، أباً فارس سلطاناً فى مراكش. وبعث هذا الأخير ابنه برفقة أخيه مولاى الشيخ المأمون (يعرف فى الوثائق الإسبانية باسم مولاى الشيخ) على رأس جيش إلى فاس، ولما منى زيدان بالهزيمة هرع إلى اللجوء إلى الأراضى التركية طلباً للمعون. إلا أن مراده لم يتحقق، لأن مولاى الشيخ نصب سلطاناً فى فاس. استغرقت الحرب الأهلية بضع سنين . وطلب مولاى الشيخ معونة من إسبانيا، حيث أقام هناك لاحقاً فترة من الزمن، وحصل على المعونة مقابل أن يسلم لفيليبى الثانى ميناء العرائش Larache . وكان هذا الميناء واحداً من الموانئ القليلة التى بقيت فى أيدي المغاربة، وكان مثاراً لقلق دائم للإسبان، خاصة أنهم بذلوا جهوداً متكررة طوال فترة حكم فيليبى الثانى للاستيلاء عليه دون كسر التحالف مع المغرب؛ لما كان يمثل من ضرورة باعتباره سدادة فى مواجهة الدفع التركى. علاوة على ذلك، أصبح ميناء العرائش ملجأ للقراصنة المغاربة، والموريسكيين، بل والإنجليز والهولنديين، لما كان يشكله من خطر يتهدد سواحل إسبانيا الجنوبية، وخاصة على الطريق إلى العالم الجديد.

كان مولاي زيدان، وقد بدا لفترة أنه هو الذى سيكسب الحرب، يثير قلق الإسبان كثيرا، ذلك لأنه كان المرشح الذى يحظى بتأييد تركيا. وبالفعل تضمن أول مرسوم بالطرد، والذى صدر فى عام ١٦٠٩، أن الخطر الوشيك الذى يتمثل فى مولاي زيدان، إنما هو واحد من الأسباب التى أدت إلى اتخاذ هذا القرار فى ذلك الوقت. وبمجرد تنفيذ قرار الطرد، قام مولاي زيدان بتجنيد فرق كبيرة من الموريسكيين المطرودين، فى صفوف جيشه، كما فعل والده أحمد المنصور من قبل.

اكتسب الفرناطيون - وقد أعادوا تعمير مواقع متعددة على ساحل المغرب المطل على الأطلسى منذ منتصف القرن الخامس عشر - أهمية جديدة فى ذلك الحين. ولعل أبرز وضع كان وضع تطوان، تلك المدينة التى تعرضت للملب والنهب والتدمير على أيدى البرتغاليين عام ١٤٣٧. وحصل أحد الزعماء الفرناطيين، المندارى، على ترخيص من سلطان فاس لإعادة تعميرها بمواطنين غرناطيين، إضافة إلى إعادة أعمارها وتحسينها. وطوال القرن التالى اكتسبت تطوان، تلك المدينة التى أصبحت فى وضع مستقل عمليا، وجميع سكانها تقريبًا من الأندلسيين، اكتسبت أهمية من الدرجة الأولى فى النشاط التجارى، وفى تهريب الأسرى. للوضع نفسه ينطبق على

طازوطه Tazuta بالقرب من مليلة، أو شاوين Xauen  
(شفشاوين) (Chefchaouen) (٢).

كشفت أعمال تنقيب أجريت مؤخرا في الساحل الشمالي  
للمغرب وحول سلسلة من القلاع الحصينة، عن مؤشرات بأنها أقيمت  
بأيد أندلسية على النمط الإنشائي المتبع في نظم المراقبة الساحلية  
بمملكة غرناطة.

إن ابن الموريسكيين الذين هاجروا إلى الأندلس قبل عمليات  
الطرد التي نفذت في الفترة ١٦٠٩-١٦١٤، وما بعدها، قاموا بمهام  
على قدر من الأهمية في جميع صور الحرب، كان ذلك ضمن  
صفوف جيوش السلطان، أو في عمليات القرصنة. لدينا مثال واضح  
لأساليب حياة تلك المجموعة من الناس، وهو ما يتمثل في ترجمة  
حياة سعيد بن فرج الدوكالي Al-Dugaly، وسوف أعرض لحياته  
باعتباره حالة نموذجية، ومثال مجموعة كرسيت نفسها لأولى المهام  
سابقة الذكر.

ولد الدوكالي في مملكة غرناطة، ثم هاجر إلى المغرب في  
تاريخ يسبق حرب البشائر خلال الفترة ١٥٧٠-١٥٧١. ثم أقام

---

(٢) صدر عن المجلس الأعلى للثقافة كتاب غوثاليس بوستو "الموريسكيون في المغرب" ترجمة  
مروة محمد إبراهيم، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، وهو يتناول الدور الذي لعبه  
الموريسكيون في المغرب من جميع النواحي، وربما يصدر كتاب آخر عن المتداعى الغرناطي  
مؤسس تطوان. (المراجع)

فى تطوان، وهناك تصرف إلى ممارسة القرصنة، وفى عام ١٥٦٣ تقريباً، كلفه السلطان بتشكيل قوة مدفعية بالجيش، من الموريسكيين . ثم منحهم السلطان أراضى فى سهل مراكش الخصيب، وذلك لتمكينهم من توفير احتياجاتهم المعيشية، وهناك زرعوا البساتين وقاموا بغرس الأشجار المثمرة. وفيما يبدو أن تلك المجموعة كانت تبلغ نحو ألفى شخص، ووصل بهم الأمر إلى أن كونوا شكلاً من أشكال الصوفية، تآمر بأوامر الدوكالى، الذى شارك فى مختلف الحملات التى جردها السلطان، بصورة متميزة.

واستمر الدوكالى فى انخراطه فى نشاط القرصنة. وفى عام ١٥٧١ كان له فى سلا Salé سبع سفن قرصنة مجهزة وعلى أهبة الاستعداد لشن هجمات على جزر الكنارى، واستخدم تلك السفن فى عمليات سلب ونهب أسفرت عن احتلال مدينة "الرصيف" Arrecife فى لانثاروتى Lanzarote . ظل الدوكالى وأتباعه أصحاب اليد الطولى فى الجزيرة طوال شهرى سبتمبر وأكتوبر من العام نفسه وفى عام ١٥٧٣، استولى على بلدة كهوف المنصورة Cuevas de Almanzora فى إقليم غرناطة، ونقل جميع سكانها أسرى إلى المغرب.

واصل الدوكالى، هو وجنوده الموريسكيون المسلحون بالبنادق مشاركتهم فى عمليات لحساب السلطان، ضد قبائل متمردة امتنعت

عن دفع الضرائب، وكذلك في الأعمال التحضيرية لمعركة القصر الكبير. ولما عجز السلطان عبد الملك عن معرفة المكان الذي يرسو فيه الملك سباستيان فقد بعث السلطان بعدد من الفصائل إلى مختلف المواقع بالساحل وأوفد الدوكالي، وكان قد حصل في ذلك الوقت على لقب "باشا". إلى سوس وذلك للدفاع عن رأس أغير Aguer. ولقى عبد الملك حتفه في المعركة وكانت آخر مغامرة طموحة لهذا الموريسكي، هي محاولة القيام بالثقلاب عسكري ضد خلفه أحمد المنصور، كان سبباً في تنفيذ حكم الإعدام فيه عام ١٥٧٩<sup>(١)</sup>.

إلى جانب تطوان، والتي كانت تحقق اكتفاء ذاتياً للموريسكيين، تمثلت أقرب المواقع أهمية في المغرب، في المحور الرباط - سلا . ففي عام ١٦١٤ تقريباً، أقامت مجموعة كبيرة من الموريسكيين، قدم القطاع الأكبر منها من قرية أورناتشوس Harnachos التابعة لإقليم إكستريمادورا، عند مصب نهر بورفريريق Beregreg، وعلى ضفتيه الرباط من جانبه الجنوبي، وسلا من الجانب الشمالي.

وجد أهل أورناتشوس قلعة الرباط، وتسمى حالياً (قصبة العديات) مدمرة، فاحتلوها وأعادوا بناءها وتحصينها. وخلال

---

(١) هناك شخصيات موريسكية قلمت ببطولات فريدة في الجهاد ضد الإسبان. انظر مثلاً قصة بلانكو التي وردت في أصل سيرافين كالديرون. (المراجع)

السنوات التالية قدم عدد آخر من المورييسكيين الذين وفدوا من إكستريمادورا، ومن أندلوثيا على وجه الخصوص، وانضموا إلى المجموعة الأولى محتلين شمال المصب، أي سلا.

أُكسب تسليم ميناء العرائش إلى الإسبان في عام ١٦١٠، واستيلاؤهم على ميناء المعمورة Mamora عام ١٦١٤، محور الرباط - سلا، قيمة جديدة، باعتباره الميناء المغربي الوحيد في شمال ساحل الأطلسي، والذي يتميز بموقعه الممتاز بالنسبة لاعتراض الطريق إلى العالم الجديد وإلى المضيق. تحول هذا الميناء فيما بعد، مثل تطوان، إلى بؤرة للقرصنة، حيث لجأ إليه قراصنة إنجليز وهولنديون أيضا.

واعتباراً من العقد الذي بدأ في عام ١٦٢٠، بدأ ميناء سلا كياناً سياسياً مستقلاً. وتولى حكم ما سمي "جمهورية سلا" مجلس مكون من اثني عشر عضواً، مارس مهامه كما لو كان مجلساً بلدياً إسبانياً، أما رئيسه فكان برتبة أميرال (أمير بحر). ومن حيث التنظيم، كان قريباً جداً من كونه بلدية إسبانية، وأما بالنسبة لوظيفة المدينة والحياة فيها فكانت أقرب إلى الموانئ التركية في البلدان الواقعة تحت الوصاية، كالجزائر، أو تونس، أو طرابلس. وفي عقد ١٦٣٠، أعلن من جديد أن أهل سلا، على الأقل اسمياً، رعايا سلطان المغرب، وكانوا قد قاسوا كثيراً من الهجمات التي كان جيشه يشنها

عليها، كما عانوا أيضا من هجمات تعرضوا لها من جيشه ومن قوى أخرى متمردة على السلطان في شمال المغرب. وفضلاً عن ذلك، حاول أهل سلا أكثر من مرة التفاوض مع إسبانيا، يطالبونها بأن تمد إليهم يد العون في مواجهة أعدائهم، مقابل التنازل عن الموقع، وتمكينهم من العودة إلى إسبانيا. كانت أولى محاولات التفاوض في عام ١٦١٤، ثم تكررت المحاولة في سنوات ١٦١٩ و ١٦٣٢ و ١٦٣٧ و ١٦٦٣.

سبق أن ذكرنا من قبل أن الموريسكيين تقلدوا مناصب مختلفة في محيط السلاطين، بالإضافة إلى نشاطهم الحربي في البر والبحر. فقد استخدم آل السعدي العديد من الموريسكيين ليعملوا في خدمتهم، اعتباراً من منتصف القرن الخامس عشر، فاستخدموهم مترجمين ومبعوثين في مهام إلى الخارج. وكما جاء في سياق حديثنا عن الجنود، والقراصنة، سوف أتناول هنا، على سبيل للتوضيح، خط مسار حياة فريدة.

لعل أبرز مثال لهؤلاء الموريسكيين الذين عملوا في البلاط المغربي، هو أحمد بن قاسم الأندلسي، المعروف باسم الحدرى. ربما يكون من مواليد ١٥٦٩ أو عام ١٥٧٠ في إسبانيا، ويحتمل أن يكون مولده في إكستريمادورا وإن كان قد عاش أيضا في إشبيلية، ومدريد.

شارك مترجماً في حكاية الرق الذي اكتشف في البرج التوربياني Turpiana في غرناطة، وفي كتب الجبل المقدس الرصاصية.

تتكرر الحجري في هيئة مسيحي عجوز، ونجح في الإبحار من ميناء سانتا ماريا في قادش متجهاً إلى ميناء مازاغان البرتغالي. ويمكن من الهروب أيضاً من هناك إلى مراكش، واستقبله هناك السلطان أحمد المنصور. وكان ذلك في عام ١٥٩٩ وفي مراكش تزوج الحجري ، وكون أسرة. ولما استقر مولاي زيدان في مدينة مراكش، عين سكرتيراً ومترجماً للسلطان عام ١٦٠٨، وقام بدور مهم في الحياة الثقافية بالمدينة. ثم حدث طرد الموريسكيين بعد فترة زمنية قصيرة، وتعرض فوج منهم، وهو في طريقه إلى المنفى على متن أربع سفن، تعرض لواقعة سرقة فقد فيها أعضاء الفوج أمتعتهم من قبل طاقم البحارة. ولما وصل هذا الفوج من الموريسكيين إلى المغرب، تقدم أعضاؤه بشكوى إلى مولاي زيدان، فقرر قبل أن يطالب السلطات الفرنسية، أن يبحث بأحمد بن قاسم الحجري إلى أوروبا، إلى فرنسا وهولندا.

وكان الحجري رجلاً على درجة عالية من الثقافة، فأجرى اتصالات في هولندا بأوائل المستشرقين في جامعة ليدن، وبالأمر موريسيو ناسو Mauricio Nassau، وكذلك أيضاً مع اللجالية اليهودية



الإسبانية والبرتغالية، حيث جمعت بينهم شراكة في اللغة، وأجرى معهم مناقشات وجدالاً دينياً. وكتب الحجرى عن رحلته إلى أوروبا كتاباً على قدر كبير جداً من الأهمية، تناول فيها تلك التجارب تفصيلاً. وبعد عودته إلى مراکش، تسلم مهامه سكرتيراً ومترجماً، واستمر في وضعه طوال فترات حكم السلاطين التاليين. وترجم أيضاً عدداً من المؤلفات العربية إلى اللغة الإسبانية، مؤلفات دينية، لكى يستعين بها الموريسكيون في المنفى الذين ما زالوا يجهلون اللغة العربية حتى ذلك الحين . وترجم إلى العربية أيضاً، هذه المرة، فى تونس، حيث أقام حتى وفاته، دليلاً عن المدفعية<sup>(\*)</sup>.

ولكن كانت هناك شخصيات أخرى، وإن كانت مهامها أقل أهمية، مثل سيدى عبد الله دودار، وهو موريسكى ولد فى غرناطة، وكان يجيد الإسبانية تماماً، كما كان ملماً بالإيطالية. وفى عام ١٦٠٠ عمل بالسفارة المغربية فى إنجلترا مترجماً. وكان لدى أحمد المنصور مترجم أندلسى آخر، هو عبد الرحمن اللقطائى، والذي سوف نلتقى به ثانية فى مراکش، عام ١٦٠٩، مترجماً لمولاي زيدان. أيضاً هناك موريسكيون سيتولون مهام سفراء فى كل من إنجلترا وهولندا، مثل أحمد بن عبد الله المارونى ويوسف بستانينو .

---

(\*) هو كتاب "العز والمنافع للمجاهدين فى سبيل الله بالمعاق" ومؤلف الكتاب موريسكى . استطاع أن يحرر كتابه بالإسبانية على ضوء ما شاهده أثناء وجوده فى الأسر . (المراجع)

مارقون، وموريسكيون ويهود إسبان، كانوا هم السبب الذى دعا دول شمال أوروبا، وخاصة إنجلترا وهولندا، إلى إقامة علاقات دبلوماسية مع المغرب، وكانت مراسلات هذه الدول مع المغرب تتم دائماً باللغة الإسبانية.

### الجزائر:

كانت مدينة الجزائر بالنسبة للرأى العام الأوروبى، وبصفة خاصة جدا للرأى العام الإشباني، هي عاصمة القراصنة بالدرجة الأولى؛ حيث كان يجد فيها القراصنة الملجأ والازدحام. فكانت أفواج الأسرى تتدفق عليها سنوياً، إضافة إلى الغنائم من مختلف أنواع السلع. الأسرى، والقراصنة، والمارقون (المرتكون) كانوا هم الإطار الذى يطوق المدينة فى نظر المعاصرين من الإشباني والأوروبيين. وكانت مصادر المعلومات فى الغالب عبارة عن كتابات استهدفت جمع الأموال اللازمة لفداء الأسرى، أو كتابات تحث الناس على غزو الجزائر. وكان يطيب لهذه المصادر أن تجد منافحاً يساعد على انتشارها فى اللغات، ووسط ما يماثيه الأسرى، وفى قسوة الأتراك، بل وفى الأخطار التى كانت تحوق بالأسرى بما يدفعهم إلى الارتداد عن دينهم، وبالتالي إلى فقدان العامل للروحى لديهم. ولقد جاء فى تلك المصادر، وهى فى الغالب من كتابات رجال الكهنوت، أن

الحرية الجنسية مع غياب الإحصاء بالشرف، قد تحالفا على إغراء الأسرى بأن يتخلوا عن الجانب الإيماني وينصرفوا إلى تكوين الثروات في المجتمع التركي المغاربي. لأن الجزائر كانت مدينة الأسرى، بل وهى البلد التى يجوز فيها كل شيء، حيث تنبهر للعبيد أو المحرومين فرص تحقيق الثروات، والوصول إلى مستوى فى السلطة العسكرية والسياسية بعيدا كل البعد عن أى تصور فى ذلك المجتمع متعدد الطبقات والمنشأ.

توافق ازدهار مدينة الجزائر مع وصول القراصنة عروج Aruch وخير الدين بارباروخا، ثم توليها السلطة هناك. استطاع الأول أن يحصل على مساعدة العثمانيين، وقبائل البربر على الساحل الجزائري علاوة على مساعدة الجاليات الموريسكية، وخاصة تلك التى وفدت من فالنسيا وأراغون، والتى استقر بها المقام فى المناطق الساحلية، وذلك بحجة الكفاح ضد الإسبان الذين كانوا يسيطرون على المضيق المؤدى إلى ميناء الجزائر. استولى عروج على السلطة فى مدينة الجزائر عام ١٥١٦، بعد أن أعدم ملكها المحلى حليف الإسبان، ولكنه بدوره منى بالهزيمة وقتله الإسبان عام ١٥١٨. وخلفه شقيقه خير الدين، الذى كان ينطوى تحت لواء الإمبراطورية العثمانية التى تلقى منها معونة عسكرية تركية. أصبحت مدينة الجزائر والمنطقة المحيطة بها مقاطعة جديدة تابعة للإمبراطورية

العثمانية، لها جيش قوامه ألفان من الإنكشاريين وأربعة آلاف جندي آخرين من الشرق Levante والقراصنة. ثم استولى خير الدين على المضيق في عام ١٥٢٩ وطرد الإسبان المتمركزين هناك. استطاع بارباروخا - بما كان يتميز به من حنكة سياسية وفكر إستراتيجي عسكري- أن يجعل من مدينة الجزائر وهي تحت الوصاية العثمانية، جزءاً من الإمبراطورية العثمانية، حتى إن السلطان سليمان العظيم عينه أميراً (قبودان بلغا على الأسطول العثماني) وهو الذي استولى على تونس عام ١٥٣٤ وانتزعها من أيدي الإسبان. اجتاح هذا الأسطول العثماني السواحل الإيطالية في السنوات التالية، وأوقع عدداً كبيراً من الرجال في الأسر. قال المؤرخ فرانثيسكو لوبيث دي غومارا Francisco Lopes de Gomara "خير الدين بارباروخا هو أعظم القراصنة"، وهو أحسن قائد بحري، لا مثيل له، وما من أحد بمقدوره أن يفعل أفضل مما فعله هو فوق الماء. ومن إنجازاته، تحصين الجزائر، وجعلها مدينة غنية، متعددة الأجناس، الحياة فيها منعشة، ومركزها حصين<sup>(\*)</sup>.

أصبحت محمية الجزائر المركز الرئيسي للسلطة العثمانية في المغرب، وهي القاعدة التي كان ينطلق منها العثمانيون في حروبهم

---

(\*) ربما يصدر عن المفكر الأعلى الثقافة قريبا كتاب غومارا "الإمبراطور كارلوس الخامس وحروب البحر المتوسط" ترجمة ناهد المشوي، مراجعة جمال عبد الرحمن. (المراجع)

ضد الإسبان. وكان داي الجزائر يبشر سلطانه باسم السلطان، حتى على باشوات تونس وطرابلس، وبذلك كان هو أعلى سلطة عثمانية في غرب البحر المتوسط. لم يبق إلا المغرب خارج نطاق السيطرة التركية، إلا أن الجزائر كانت تأوى وتساعد مختلف المرشحين الذين كانوا يتطلعون إلى تولي عرش المغرب، وكثيراً ما أُلقت بتقلها في النزاعات الداخلية وفي الصراع على عرش ذلك البلد المجاور.

جرت سلسلة من الاتصالات بين كارلوس الخامس وبارباروخا، ساعد على إجرائها أندريا دوريا Andrea Doria ونائب ملك نابولي فرناندو غونثاغا Fernando Gonzaga، بهدف التوصل إلى اتفاق بشأن استرداد الأسرى من رعايا التاج الإسباني، ولكن المحاولات باءت بالفشل؛ مما أدى إلى قيام كارلوس الخامس بتجريد حملة هائلة على الجزائر عام ١٥٤١، وانتهت الحملة بكارثة إسبانية، مما أسفر عن ترسيخ شهرة الجزائر بوصفها قوة لا تقهر وحصناً منيعاً. أصدر السلطان العثماني مرسوماً بمنح حسن أغا، البيك الجديد، وخليفة بارباروخا رتبة باشا، وبدأت مرحلة سيطر فيها قراصنة الجزائر على البحر المتوسط. اعتمدت هيئة المحمية ورعاؤها إلى حد كبير على بطولات القراصنة وعلى نجاح الحرب الدائرة ضد إسبانيا. أصبحت القرصنة منذ عصر آل بارباروخا وحتى عام ١٥٨٠ (ذلك النشاط الذي كان يتمتع بضمان حكومي)

هى البديل عن حرب غير معلنة. ثم طرد فرسان مالطة من طرابلس عام ١٥٥١، وتم الاستيلاء على جزيرة جربة Djerba عام ١٥٦٠، ومات كونت ألكالديتي Alcaldete، حاكم وهران على أثر هزيمة موستاغانم Mostaganem. وفى إسبانيا اندلعت ثورة الموريسكيين فى البشريات عام ١٥٦٨، وما تلاها من حرب أخرى أسفرت عن هزيمة الموريسكيين الفرناطيين، مما ضاعف أعداد المقيمين على الساحل الجزائرى، كما تضاعفت أعداد المجندين فى صفوف القراصنة الأتراك والبربر.

ملأ الأندلسيون مدينة الجزائر بعد ثورة غرناطة عام ١٥٠١، وما ترتب عليها من صدور مرسوم التحول للدينى. وكانت وهران بدورها ماضية فى إيواء أعداد كبيرة ممن لجأ إليها من الفرناطيين منذ عام ١٤٩٣. وكان الإخوة بارباروخا Barabaroja يسهلون هم ومن خلفهم عمليات هجرة الأندلسيين داخلاً، وكانوا يجنّدون المهاجرين فى الحملات والعمليات الهجومية على المسيحيين، كما يسروا لهم التوطن فى أراضيهم، حيث أفلدوا منهم فى استزراع الأراضى الخصبة فى سهول المنطقة المعروفة بمنطقة متيجة Mitiya، والتى تقع ما بين الجزائر العاصمة وبليدة، وذلك فى الفترة من ١٥٠١ إلى ١٥٢٩، وكذلك جذبوا كل ما أمكن لهم من المهاجرين بالطرق الخفية، وخاصة بعد الهزيمة التى منى بها كارلوس الخامس

فى الجزائر عام ١٥٤١ . وساعد المهاجرون الفرناطيون بانضمامهم إلى صفوف جيش العلج على Uluch Ali الموريسكيين المتمردين فى حرب البشرات وتولوا تنظيم عمليات نقل الآلاف منهم فى أعقاب الهزيمة التى لحقت بهم.

ويحكى لنا ديبغو دى هابيدو Diego de Haedo الذى كتب وصفا مشهورا لمدينة الجزائر فى عقد ١٥٧٠ أنه خلال السنوات التى قضاها فى المدينة (الفترة نفسها التى قضاها أيضا أسير مشهور آخر : ميغيل دى ثيربانتيس Miguel de Cervantes) كان فى مدينة الجزائر عشرون بيتا لمسلمى غرناطة، وأراغون، وفالنسيا، وقطالونيا "من هاجروا من تلك المناطق ودلنا ما كانوا يخرجون مع نسائهم وأبنائهم". ويقول هابيدو إن هؤلاء الموريسكيين الإسبان ينقسمون إلى عنصرين منفصلين، بعضهم المدجنون، والبعض الآخر الثغريون (أو الحدوديون)، من أراغون، وفالنسيا، وقطالونيا . وجميعهم من أصحاب الحرف، أهمهم المتخصصون فى صناعة البنادق. وكانوا يعملون أيضا بتربية دود القز كبار السن منهم، وأشد الأعداء قسوة بالنسبة لنا نحن المسيحيين، فى بلاد البربر". كان الموريسكيون يقومون بتسليح مراكبهم الشراعية، بمساعدة القباطنة الأتراك، وكذلك الفرقاطات، ثم يبحرون متجهين نحو تلك المواقع على الساحل الإيبانى، حيث يقيم ذوهم وأصدقائهم. وكانوا يدخلون

بمساعدة هؤلاء مرتدين الملابس المسيحية، ويتحدثون بالإسبانية أو بلغة أهل فالنسيا . وبذلك كانت تسهل لهم عمليات السلب والسطو، إضافة إلى اختطاف الأسرى، إضافة إلى مساعدة موريسكيين آخرين على الهرب.

جعل الأتراك من مدينة الجزائر، في أواخر القرن السادس عشر، مدينة متعددة الأجناس، مبرقشة، وثرية، وفي صخب دائم. وكان سكان الجزائر، مثل سكان باليرمو أو روما، وربما كانوا أكثر تميزاً منهم. تقع المدينة على خليج شديد الانحدار تكاد تغلقه مجموعة من الجزر الصغيرة، وكأنها سدادات (موقع يشبهه المصادر الإسبانية المعاصرة بقوس المنجنيق)، ويحتمى هذا الخليج بتحصينات أقامها بارباروخا Barbarroja ، وأما وسط المدينة فقد أحسن تخطيطه، حيث يطالعنا بعدد من القصور الخاصة بالغة الثراء. مدينة ساحلية تعج بحركة تجارية كثيفة تتميز بخليط من السكان، وصفها من زارها من الأوروبيين في القرن السادس عشر بأنها مدينة مزدهرة ومريحة وجميلة وعامرة بالبيوت الفاخرة والحمامات العامة، والحصون المنيعة والعمائر الدينية الرائعة. لثراء هناك يتحقق سريعاً وفرص الرقي الاجتماعي ميسرة وبوفرة. يتنوع سكان الجزائر ما بين بربر وأتراك وعرب، علاوة على موريسكيين إسبان ويهود وأسرى ومرتدين من كل أركان أوروبا. وتشير المصادر بوضوح إلى أن



الأندلسيين، بما كانوا يحظون به من رعاية من قبل الأتراك، وبانضمامهم إلى صفوف قواتهم المسلحة، والحرس الخاص، لعبوا دوراً كبيراً في دعم سلطة الصفوة الحاكمة التركية، والتي ظلت بعيدة عن السكان المحليين رغم كل شيء.

كان البحر والملاحة هما عصب الحياة بالمدينة. وبالتالي كانت صناعة بناء السفن وتموينها، وتصنيع السلاح وتجارة المواد اللازمة لتلك الصناعات (وكانت الجزائر تعتمد على استيرادها من الدول المعادية لإسبانيا وخاصة إنجلترا) تمثل جانباً كبيراً من الاقتصاد. ولم يقتصر تكوين الثروات على القرصنة والاتجار بالأسرى في المدينة فحسب، بل كان هناك نشاط تجارى مكثف. اشتهرت منطقة الجزائر بإنتاج الحبوب، والصوف، والزيت، والعسل، والزبيب، والتمور. وكانت السفن الإنجليزية تفرغ هناك حمولاتها من الحديد، والرصاص، والتصدير، والسبائك، والبارود، كما كان القطالونيون والفاالنسيون يحملون معهم اللآلى والأحجار الكريمة والنبىذ لبيعها هناك. وكان أهل الجزائر يجلبون القطن، واللجوت الخاص لأشربة السفن، وملح البارود، والبارود، وحجر الشب، والقلل اللازم لصناعة السفن، من مرسيليا، وأما المدن الإيطالية فكان أهلها يجلبون معهم الأقمشة الحريرية، والسلع الترفيئة، كما كانت حركة المرور مستمرة مع إسطنبول، وعبر هذه المدينة كانت تصل السلع الواردة من الهند.

كانت التركية هي اللغة الرسمية في المدينة، وكان أغلب السكان يتحدثون العربية أو البربرية، نظرًا لوجود أعداد كبيرة من رجال قبائل الجبال القريبة من هناك، كانوا يقدون إلى المدينة للتجارة. بيد أنه كانت تتردد الأحاديث بكل اللغات، سواء كان ذلك في الميناء، أو في الأحياء التي كان ينام بها الأسرى ليلاً، إضافة إلى لغة حرة، وهي خليط من مختلف اللغات. وتحدثنا مؤلفات ثيربانتيس، وقد أمضى هناك بضع سنوات في الأسر، عن حركة جميع أنواع البشر من مختلف بلدان العالم، ومن مختلف الأعراق والطوائف الدينية، والتي لم تتوقف في المدينة. كل فئة تعرب عن نفسها بلغتها وبطريقة الملابس الخاصة بها. طوائف كل طائفة منها مختلفة عن الأخرى، ولكن الحدود بينها قابلة للنفاذ، مما جعل تجاوزها أمرًا يسيرًا. وأناس جمعت بينهم عناصر ثقافية واجتماعية عديدة، اختلطت لغاتهم، وتعددت بينهم الأديان والأمم. ويصف ثيربانتيس المدينة وهو في الأحياء فيقول : "للجزائر ، حسبما أرى، سفينة نوح مصغرة، هنا كل شيء، كل الحرف والمهارات الكامنة. لم يكن للموريسكيون الذين طردوا في القرن السابع عشر، والذين لنتهى بهم المقام في الجزائر، سوى فوج من الأتواج الذي سبقت إلى هناك وعاشت منذ نحو قرن ونصف قرن من الزمان. ولم يتخذ هؤلاء من المدينة ولا الأراضي الخصبة المحيطة بها مقرا لإقامتهم فحسب، بل لجأوا،

في أحيان أخرى، إلى إعادة تعمير الموانئ المتقادمة على طول الساحل، وخاصة بجاية Bugfa ، ودليس Dellis ، وبونا Bona ، وعنابة على الساحل الشرقي، وتيس Tenes، وبرشيك Birchic، وشرجيل Cherchel على الساحل الغربي.

### تونس :

طائفة الموريسكيين في محمية تونس العثمانية أشهر الطوائف الثلاث التي أشرت إليها . ولعل هذا يرجع إلى أنها كانت طائفة معرفة ومحددة بصورة جيدة جدا داخل المجتمع التونسي، سواء كان ذلك في القرن السابع عشر أو في القرون التالية، فهي لم تذب، ولم تتكيف كلية في مجتمع الأغلبية، كما حدث في البلدين اللذين تناولناهما. وهي بالتالي الطائفة التي أجرى بشأنها أكبر قسط من الدراسات المتخصصة.

واجهت تونس خلال القرن السادس عشر العديد من الهجمات المسيحية، وخاصة عملية استيلاء كارلوس الخامس على ميناء هلق الوادي Guleta، وموانئ أخرى أيضا (بنزرت Bizerta) وانتهى الأمر إلى أن فرض كارلوس الخامس شكلاً من أشكال الحماية على الأسرة الحاكمة هناك لكي يحول دون استيلاء العثمانيين على مناطق قريبة

من مناطق تابعة لأملاك إسبانيا في جنوب إيطاليا (مملكتي نابولي، وصقلية). ولم يستول الأتراك على تونس كلية حتى السنوات الأخيرة من القرن.

هذا الوضع المستقل عن إسبانيا، بالإضافة إلى البعد الجغرافي الكبير، يوضح أن تونس لم تتلق، خلافاً للمغرب والجزائر، تسرب الهجرات المستمر الذي شهدته البلدان الأخرى منذ أواخر القرن الخامس عشر. ولقد تكففت الهجرات على تونس بصورة فجائية، وبأعداد كبيرة على أثر عملية الطرد التي وقعت في عام ١٦١٤ حيث وصل إليها نحو ٨٠٠٠٠ موريسكي. وكانت تلك هي آخر موجة، الموجة الأخيرة من أكثر المسلمين تشبعا بالثقافة الإسبانية، وهؤلاء لم يجدوا في تلك الأرض المضيقة أية كيانات أقامها مهاجرون أندلسيون فيما سبق، حتى ينضموا إليها.

تدخل السلطان العثماني أحمد الأول (١٦٠٣-١٦١٧) لدى السلطات الفرنسية، وسلطات البندقية - حيث كان بلداهما قد أوقفا عددا لا حصر له من الموريسكيين المطرودين - لكي تسهل السلطات هناك إجراءات المرور إلى البلاد الإسلامية، وفي الوقت نفسه طلب من السلطات التركية في تونس أن تستقبل الموريسكيين المطرودين. وقام عثمان داي، بعد قيامه بإعادة تنظيم البلاد، بانتهاء فترة التدخل

الإسباني والصراعات الداخلية التي تفجرت بعد أن رسخت السلطة العثمانية وجودها، قام بإعفاء السفن التي كانت تقل موريسكيين من رسوم الموانئ، ثم منح للموريسكيين إعفاءات ضريبية، وأقطعهم الأراضي اللازمة للإقامة، إضافة إلى ما كفله لهم من حماية على الصعيد الرسمي.

أقام الموريسكيون في ضواحي تونس، وفي وادي نهر مجردة Meyerda، وفي السهول الشمالية والممتدة من بنزرت إلى تونس، ونابل Nabuel وكذلك زغوان Zaghuan، بجانب الجبل الذي يمد مدينة تونس بالمياه عبر ممر مائي. مازالت هناك في تلك المناطق قرى كان جميع سكانها موريسكيين، ولم تزال خصلتهم العمرانية والمعمارية قائمة هناك وخاصة في تستور Testur، وفي قلعة الأندلس، وغرومباليا Grumbalia. وفي بنزرت مازال هناك حتى يدعى حي حومة الأندلس، أي "حي الأندلسيين" وعلى محراب الجامع الكبير في تستور، تاج من فن الباروك. هو الفريد في العالم، وينسب إلى الموريسكيين أيضا ميدان طبرية Teburba وهو ذو طابع إسباني بحت، وكذلك مختلف النافورات العامة المتوفرة في البلدان التي كان يقطنها الموريسكيون. تميز هؤلاء السكان (الموريسكيون) بالأعمال المدنية المتعلقة بالرى، وشق مجارى المياه التي كانت تمد مدينة تونس بالمياه.

أقام الموريسكيون في هذه القرى الصغيرة فى تجمعات متجاورة، نظمت على نظام الجماعات Aljamas نفسه ، وطبقت نظام الرئاسة نفسه بها، وكان أول شيخ للأندلسيين، وهو ما لدينا بيانات مكثفة عنه، هو لويس ثاباتا Luis Zapata، ثم جاء بعد ذلك ببضعة عقود، التاجر والثرى الكبير مصطفى دى كارديناس. وكانت للموريسكيين مؤسساتهم الخيرية الخاصة، ومدرسة عليا لشباب الموريسكيين . وكان موريسكيو تونس، الذين قدموا من وادى نهر الإبرو، ومن القشتاليين (قشتالة القديمة وقشتالة الحديثة) لا يعرفون العربية، كما كانوا يدعون بأسماء إسبانية، وعلى الرغم من تغييرهم لاسمهم الرسمى بشكل سريع، فإن الألقاب وأسماء الأماكن ظلت قائمة على مدى قرون. وحصل الموريسكيون فى سنوات وصولهم على تصريح بأن يتلقوا التعليم الإسلامى باللغة الإسبانية، حتى يمكنهم مواصلة الكتابة بها. وثمة مخطوطات موريسكية تونسية كتبت بالإسبانية<sup>(٥)</sup>، وما زالت محفوظة، وخاصة فى الموضوعات الدينية، والمتعلقة بالأخلاق، وكذلك الموضوعات الشعرية والأدبية. إلا أنه فيما يبدو، فإن سيطرة اللغة الإسبانية فى الكتابة لم تتجاوز الجيل

---

(٥) أجرينا دراسة على إحدى هذه المخطوطات التى حررها موريسكى باللغة الإسبانية . انظر : د. جمال عبد الرحمن، ثقافة موريسكى، قراءة فى المخطوطة رقم ٩٦٥٤ بمكتبة مدريد الوطنية، المؤتمر العالمى الحادى عشر للتراث الموريسكية، زغروز-تونس، ٢٠٠٢ . (المراجع)

الأول من المهاجرين، وبالتالي، وبعد فترة، أغلقت السلطات التونسية المدارس التي يتم التعليم فيها باللغة الإسبانية، وأصدرت أوامرها بأن يتلقى الأطفال الموريسكيون تعليمهم في المدارس العربية. وفي منتصف القرن الثامن عشر انتهى استخدام الإسبانية في الحديث الشفوي في تونس.

شكل الموريسكيون عنصراً أساسياً في تآلق تونس خلال العصر العثماني. تخصصوا في الأنشطة البحرية، كما اهتموا الزراعة أيضاً (وخاصة الزراعة المكثفة) والتجارة، ومارسوا الحرف الحضرية. تركوا بصماتهم واضحة في فنون البناء وكذلك في جميع الفنون المتعلقة بصناعة الخزف. ومن تراث الموريسكيين أيضاً برزت صناعة النسيج، النسيج الفاخر، بل واهتموا بصناعة الحرير، والتطريز، والديباج، وصناعة القباطين، واحتكروا هناك، على وجه الخصوص تصنيع القلنسوات وتسويقها، وهي غطاء للرأس الأحمر المصنوع من اللباد الذي يتميز به التونسيون.

خلاصة القول هنا أنه من الملاحظ أن الموريسكيين، سواء كانوا مهاجرين أو مطرودين إلى الشمال الإفريقي، احتفظوا بخاصية مميزة، موازية لما كانوا عليه في شبه الجزيرة (على مدى قرن من الزمان على الأقل) : الاشتغال بالزراعة المكثفة، والرعي، والحرف

الحضرية، وبخاصة الحرف المتعلقة بفنون المعمار، وصناعة الحرير والمنسوجات، والتجارة. كما مارسوا الأنشطة التي كانت شائعة لدى تجمعات شبه جزيرة إيبيريا ولدى ورثتهم في المغرب، وتقوم الموريسكيون في تلك التجمعات المغربية أيضا في نقل التقنيات والمعارف المتقدمة في التطور في شبه الجزيرة، وبوجه خاص جدا مختلف فنون الحرب، والمدفعية بالذات. وأما بالنسبة للأسلحة النارية فقد عملوا بها اعتبارًا من التصنيع وحتى الاستخدام بوصفهم جنودًا، بيد أنهم ابتكروا أيضًا تقنيات جديدة في عالم البناء، وفي العمران - حيث أضافوا مخططات عصر النهضة - وفي الري، بل حتى في المنتجات الزراعية الجديدة.

أدخل الموريسكيون في شمال إفريقيا منتجات زراعية سبق أن عرفت لها شبه الجزيرة من أمريكا. منها على سبيل المثال نبات الصبار، والذي يتميز به البيئة في شمال إفريقيا، وهو ما أسماه الفرنسيون "تين البربر"، وهو الصبار الهندي الذي أحضره الإسبان من العالم الجديد.

اقترب طابع التهجين المتأصل في الثقافة الموريسكية بصورة كبيرة مع الطرد، " فإذا كان الموريسكيون في إسبانيا يعتبرون مسلمين تمامًا، أو يعملون على أنهم جنس غريب غير قابل للتكيف،



باعتبارهم ارتبطوا في مناطق معينة بالكلام باللغة العجمية *Aljamia*، وبأسلوب خاص في الكتابة، فإنهم كانوا يعتبرون غرباء أيضا في شمال إفريقيا، وكانت أكبر تهمة تلصق بهم أنهم يعتقدون المسيحية، أو أنهم في حاجة إلى الأسلمة من جديد، على الأقل كانت لغة التخاطب بينهم هي الإسبانية وكذلك لغة الكتابة. وكان الموريسكيون ناقلين للثقافة الأندلسية، بل والإسبانية على وجه الخصوص، ثقافة إسبانية مشبعة بخصائص عصر النهضة والتأثير الأمريكي . وعلى خلاف ما حدث في إسبانيا، استغرق الموريسكيون في المغرب فترة نقل عن قرن من الزمان حتى يتكيفوا تماما مع مجتمع الأغلبية<sup>(\*)</sup>. فلم يبق من آثار أصولهم التي ترجع إلى شبه الجزيرة سوى مجرد حفنة من الألقاب، ونذكرى لبعض العائلات الكبيرة.

---

(\*) هذا منطقي لأنهم هاجروا إلى مجتمع يتفق مع قيمهم الإسلامية التي دافعوا عنها في إسبانيا.  
(المراجع)



## تعليق على المراجع

نتناول هذه القائمة، وإن كانت حديثة للظهور، مجموعة من الكتب سهل على القارئ غير المتخصص أن يحصل عليها دون أن يضطر إلى الاستعانة بالكتب أو المجلات المتخصصة. العناوين الخاصة بالمستعربين والمدجنين قليلة، ولعل أقرب قائمة خاصة بهم تتمثل في كم كبير من المقالات الفردية المتخصصة، ومن المراجع المفيدة :

Click. The Islamic and Christian Spain in the Early Middle Ages. New Jersey- 1979

وقد نرجم هذا الكتاب إلى الإسبانية تحت عنوان:

Cristianos y Musulmanes en la España Medieval (711-1250)- Madrid, Alianza editorial, 1991

مسيحيون ومسلمون في إسبانيا المصور الوسطى.

ويستطيع القارئ أن يطالع المجلد المجمع بعنوان :

Minorités religieuses dans l'Espagne médiévale. Vol 63-64. (1992)- Revue des mondes Musulmans et de la Méditerranée.- Aix-en-Provence.

ونتناول تراكيب وقوائم مفيدة للغاية.

١ - وفيما يتعلق بالمستعربين Mozárabes ، فإن الجزء الأكبر من الأعمال الحديثة يركز على المسيحيين في الأندلس بصفة أساسية، مع تنويهات محدودة إلى هجرتهم إلى مناطق أخرى. ومن هذه الكتب:

Christy, A. Cristian in al-Ándalus (711-1100), Richmond Surry 2002.

ثمة استثناء ينبغي أن يوضع في الاعتبار هو كتاب :

Millet-Gérard, D. Chrétiens mozárabes et culture islamique dans l'Espagne de VII-n-Paris 1984

(المسيحيون والثقافة الإسلامية في إسبانيا خلال القرنين الثامن والتاسع).

Manzano Moreno E. La frontera de Al-Ándalus en la época de los omeyas- Madrid CISC, 1991.

حدود إسبانيا في عهد الأمويين

إخلاء واستعمار وادي نهر الدويرو خلال الفترة من القرن الثامن إلى القرن العشرين.

وحول كل من المستعربين والمدجنين في منطقة طليطلة انظر :

- Molénat, J. P., Campagne et monts de Toléde du XII au XVème siècle- Madrid, Casa de Velazquez, 1997.

- ريف إسبانيا وتلالها.

هذا ولا يزال هناك مؤلف قديم صدر ضمن مجموعة، له أهمية، وأن كان مضمونه قديماً في كثير من الوجوه، إنه كتاب.

- Cagicas, I. de las, los mozárabes, Madrid, 1947- 1948.

- المستعربون

لنظر أيضاً كتاب :

- Gonzalez Palencia, A., Los mozárabes de Toledo en los siglos XII y XIII, Madrid, 1962-1930.

- المستعربون في طليطلة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر.

٢ - وثمة دراسة مماثلة تتعلق باليهود، حيث لم يصدر كتاب عن اليهود الذين هاجروا من الأندلس خصيصاً، وبالتالي إما إن نطالع عملاً مجمعاً مشتركاً حول أولئك الذين عاشوا في الأندلس مثل:

- Ashtur, E. The Jews of Moslem Spain- 2 vol. Filadelfia, 1979.

- يهود إسبانيا المسلمة.

- وإما أن نبحث عن الموضوعات الخاصة بالمهاجرين، في القوائم العريضة التي تتناول يهود قشتالة وأراغون في العصور الوسطى. وهناك مؤلف جيد هو :

- Baer, Y., Historia de los judios en la España Cristiana, Madrid - Atlanta, 1981- 2 vol.

تاريخ اليهود في إسبانيا المسيحية.

وقد ترجم هذا الكتاب عن العبرية إلى الإسبانية.

هذا ويمكن استخراج تنبيهات منعزلة حول يهود الأندلس من مؤلفات حول اليهودية في العصور الوسطى، في قشتالة ، وأراغون وحول قشتالة كتاب.

- Valdeón, J., Los conflictos sociales en el Reino de Castilla en los siglos XIV y XV, Madrid - 1975.

- الصراعات الاجتماعية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر في قشتالة .

- وللمؤلف نفسه كتاب

- Los Judios de Catilla y la Revolución Trastámara.

## ٢ - يهود قشتالة وثورة تراستمارا

- وعن أراغون يمكن الرجوع إلى :

- Romano D. Los funcionarios judíos de Pedro el Grande de Aragon, Barcelona, 1983.

- الموظفون لليهود لدى بدرو العظيم، ملك أراغون.

- Hinojosa Montalvo, J., Los Judíos del Reino de Valencia de 1391 a 1992- Valencia 1991.

- وقد ترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية تحت عنوان :

- The Jews of the Kingdom of Valencia : from persecución toexplución, 1391-1492, Jerusalén - 1993.

- يهود مملكة فالنسيا من الاضطهاد إلى الطرد.

ونجد في المؤلف المجمع بعنوان : (عمليات إبعاد أراغونية الصادر عن مؤسسة فرناندو الكاثوليكي Fernando el católico، عام ١٩٨٨ في سرقسطة، قائمة مكتوبة جيدة بأهم المتخصصين في هذا الموضوع، بما في ذلك المدجنين. ولعل من بين أهم الباحثين في مجال الأقليات، في أراغون (ماريا لويسمار لا ديسما María Luisa Ladesma، وخ. ريبيرا سانس Riera Sans، ود. رومانو D. Romano،

وَأ. بلاسكو (A. Blasco) فقد نشر هؤلاء أبحاثهم في شكل مقالات نشرتها مجلات متخصصة، أو شاركوا بها في مختلف الأعمال الجماعية، منها على سبيل المثال: تاريخ أراغون Historia de Aragón، أو تاريخ إسبانيا Historia de España، لمنينديث بيدال Minendez Pidal ويتضمن كلاهما دراسات جماعية جيدة عن اليهود والمدجنين.

٣ - وتتكون قائمة الكتب التي تتناول المدجنين أيضاً، في معظمها من دراسات أحادية أو فردية، محلية، متناثرة على صفحات عدد كبير من المجلات العلمية، أو في مجلدات تاريخية، منها المؤلفان السالف ذكرهما، أو في كتاب تاريخ قشتالة Historia de Castilla الصادر عن جمعية قشتالة وليون Junta de Castilla y Leon. وإنه من الأهمية بمكان الاهتمام بمنشورات مركز دراسات المدجنين في طرويل Centro de Estudios Mudéjares de Truel، والذي نشر محاضرات المؤتمرات التي عقدت حول المدجنين، والتي يعقدها بشكل دوري، إضافة إلى الدراسات الأحادية أو الفردية. فقد نشرت حتى الآن محاضرات المؤتمر السابع (٢٠٠٢). وكما هو الحال بالنسبة للموريسكيين، ينعين الاهتمام بمجلة شرق الأندلس Sharq Al-Andalus التي تصدرها جامعة أليكانتي، وهي بالإضافة إلى كونها مقصورة على المدجنين والموريسكيين تتضمن قوائم مكتبية مهمة.



أما مجلة ألخاميا Aljamía التي تصدرها جامعة أوبييدو Oviedo فهي مخصصة تمامًا لفهارس الكتب والمقالات<sup>(\*)</sup>.

وعلى الرغم من تتأثر المراجع الخاصة بالمدجنين بالذات، فإن هناك مؤلفات مجمعة وموجزة حديثة، مزودة أيضًا بقوائم مكتيية طويلة تساعد على توجيه القارئ الذي يرغب في التعمق في دراسة موضوع معين. ومن أقدم هذه الأعمال المجمعة، والتي ما زالت على قدر كبير من الفائدة، نظراً لأنها مزودة بتدليل وثائق على درجة كبيرة من الثراء، مؤلف فرنانديث وغونزاليث، الصادر تحت عنوان وضع المدجنين الاجتماعي والسياسي في قشتالة، الصادر في مدريد، ١٨٦٦

• Fernández y Gonzalez, M. Estado social y político de los mudéjares en castilla, Madrid 1866.

ومن هذا الكتاب نسخة فاكسميلي - صادرة في مدريد إيبيريون Hiperión ١٩٥٥.

وفي رأيي أن دليل هارفي، إنما هو مرجع رائع، فهو يجمع

---

(\*) تحولت هذه المجلة إلى مصدر لا غنى عنه للباحث في الموضوعات الموريسكية، فهي تقسم موجزا من عدة صفحات عن كل كتاب ينشر في هذا المجال. هذا بالإضافة إلى قوائم المراجع وأخبار المؤتمرات. (المراجع)

بين دراسة متزامنة مع ما حدث في الأندلس، وبين مختلف طوائف  
المدجنين، والكتاب بعنوان: إسبانيا الإسلامية ١٢٥٠-١٥٠٠  
الصادر في شيكاغو ولندن - جامعة شيكاغو برس

Harvey, L.P. *Islamic Spain- 1250-1500*, Chicago y Londres,  
Chicago University Press, 1990.

ولعل أحدث دليل صدر، وهو مطروح حاليا ويتضمن  
مجموعة من الوثائق هو كتاب : هينخوسا مونتالבו

- Los mudéjares. La voz del Islam en la España cristiana.  
Hinojosa Montaivo J. Centro de Estudios mudéjares, Truel 2002.

المدجنون : صوت الإسلام في إسبانيا المسيحية

وهو من جزأين الثاني منهما مخصص للوثائق.

هناك سلسلة من الكتب أيضا، تتناول المدجنين بالدراسة من  
زاوية التقسيم الإقليمي. وسوف أشير فقط إلى أهم هذه الكتب:

قُتِلَ :

- Castilla : Lodero Quesada, M.A. Los Mudéjares de Castilla en tiempos de Isabel la católica. Burgos- 1968

- المدجنون في قُتِلَ في عصر إسماعيل الكاثوليكية.

ويمكن قراءة هذا الكتاب مع كتاب آخر للمؤلف نفسه وهو :

- Granada, Historia de un país islámico-Madrid 1978.

- غرناطة : تاريخ دولة إسلامية.

ومن مؤلفات الكاتب نفسه .

- Granada después de la conquista. Repobladores y Mudéjares- 1988.

- غرناطة بعد الغزو.

- Gaían Sánchez A., Los mudéjares del reino de Granada. - Granada de 1991.

- مدجنو مملكة غرناطة.

- García Arenal M. y Leroy B., Moros y Judíos en Navarra en la Baja Edad Media- Madrid, Hiperrion – 1981.

- مسلمون ويهود في ناباراً.

هناك بعض الدراسات الفردية، والخاصة بمناطق معينة، وتستهدف للموريسكيين . تبدأ هذه الدراسات بعدد من الفصول المخصصة للمدجنين ، مثل :

• Tapia Sánchez S., La comunidad morisca de Ávila, Salamanca, Publicaciones de la Universidad 1991.

- جماعة الموريسكيين في أبله.

أراغون :

لعله من المفيد أن نبدأ بالتعرف على الوضع هناك فيما قبل الغزو المسيحي، ولذلك يمكن الاستعانة بـ :

• Viguera M. J. Aragón musulmán, Zaragoza, 1981 Reed 1988.

- أراغون للمسلمة

ويتركز الجانب الأكبر من الكتب في المصور الوسطى المتقدمة ومنها :

• Boswell, J. The Royal I treasure : Muslim communities under the crown of Aragón in the fourteenth century. New Haven y Londres, Yale University Press, 1977.

الكنز الملكي : لطوائف المسلمة تحت ناج أراغون في القرن الرابع عشر .

- Nirenberg D. Communities of violence. Persecution of minorities in the Middle Ages, Princeton University Press .

- طوائف العنف، اضطهاد الأقليات في العصور الوسطى.

- Ferrer, M.T., Els sarrians de la corona , Catalana Aragonesa en el siglo XIV, Barcelona CSIC 1990.

- المسلمون في المملكة القطالونية الأراغونية في القرن ١٤ .

فالنسيا :

فالنسيا تحظى بقائمة مكتبية كبيرة جدا وإن أكثر المشاركات وفرة، إذا بدأنا طبقاً للتسلسل التاريخي، أي بداية من القرن الذي تم فيه الغزو المسيحي، هي كتابات بيرنز Burns، صاحب سلسلة من الكتب المهمة التي تتناول فالفنسيا خلال القرن الثالث عشر، ويسويها بإحدى ممالك الحملات الصليبية في بلاد الشرق، ويصف وضعها بوضع ما قبل الاحتلال. ومن أشهر عناوين كتبه .

- The crusader kingdom of Valencia. Reconstruction of thirteenth century Frontier, Cambridge 1979.

- مملكة فالنسيا للصليبية.

- وقد ترجم هذا الكتاب إلى الإسبانية تحت عنوان :

- El Reino de Valencia en el siglo XIII. 2 vol. Valencia 1982.

- Medieval Colonialism : Post crusader exploitation of Islamic Valencia, Princeton, 1975.

- استعمار العصور الوسطى . استغلال فالنسيا الإسلامية في أعقاب الحروب الصليبية.

- O. Muslim, Christians and Jews in the Crusader Kingdom of Valencia – Cambridge 1984.

- المسلمون، والنصارى، واليهود في مملكة فالنسيا المسيحية. ولكن هناك مؤلفات أخرى متعددة للكاتب نفسه، وذلك بالإضافة إلى عدد من المقالات المتنوعة.

وتناول ب. جيسكار الفترة نفسها بالدراسة، ولكن من رؤية مختلفة تمامًا . فكتب

- Guichard P. Les musulmans de Valence et la Reconquete (XII-XIII siecles), Damasco, 2 vol. 1990-1991.

- مسلمو فالنسيا وحرب الاسترداد.

وتغطي كارمن بارثيلو الموضوع بشكل أكثر توسعاً (متضمناً  
الموريسكيين) في :

- Barceló, C. Minorías islámicas en el país Valenciano,  
1984.

- الأقليات الإسلامية في فالنسيا.

وانظر أيضاً.

- Ferrer : Mallol, M.T. Les aljames sarraïnes de la  
governació d'Oriola en el segle XIV : Cristians I sarraïns al país  
valencia, Barcelona, 1988.

- La frontera amb L'Islam en el segle XIV:

- الحدود مع الإسلام في القرن الرابع عشر.

- Cristians I Sarraïns al país Valencia - Barcelona, 1988.

- مسيحيون ومسلمون في فالنسيا.

- Meyerson, M. The muslims of Valencia in the age of  
Fernando and Isabel : Between Coexistence and crusade -  
Berkeley, 1991.

- مسلمو فالنسيا في عهد فرناندو وإيزابيل : بين التعايش  
والحملة الصليبية، وقد ترجم هذا الكتاب إلى الإسبانية.

وبالنسبة لفن المدجنين:

- Borrás G., Arte Mudéjar aragonés, Zaragoza, 1978.

- فنون مدجنى أراغون.

ونشرت منظمة متاحف بلا حدود مؤخرًا، مجلدًا خاصًا  
بفن المدجنين في أنحاء شبه الجزيرة جميعها ، فى صورة  
رائعة، ومسار تصويرى جميل . صالار عن (Madrid, Electra  
2001)

٤- أما من يرغب فى التعرف على الموريسكيين، فهناك  
مرجعان لا غنى عنهما :

- Domínguez Ortiz, y Vicente, B. Historia de los moriscos.

Vida y tragedia de una minoira. Madrid – Revista de Occidente,  
1981, varias ediciones, la última, Madrid, Alianza Ed.1997<sup>(\*)</sup>.

- Los moriscos antes y después de la expulsión Madrid  
Maphre, 1992<sup>(\*\*)</sup>.

---

(\*) تمت الطبع حافيا الترجمة العربية لهذا الكتاب تحت عنوان "تاريخ الموريسكيين. ملأسة ألبية"  
ترجمة عبد المال صالح، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة،  
(المراجع)

(\*\*) صدرت الترجمة العربية لهذا الكتاب تحت عنوان "الموريسكيون فى إسبانيا وفى المنفى"  
ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥ . (المراجع)



تاريخ المورييسكيين - حياة أقلية ومأساتها.

المورييسكيون في إسبانيا وفي المنفى.

هذه مراجع لا غنى عنها، وليست في حاجة إلى أى تعليقات  
وهي أفضل مدخل ممكن إلى الفصلين الرابع والخامس من هذا  
الكتاب.

وللدخول في محيط المنشورات الصادرة حول المورييسكيين،  
يتعين توفر دليل، لا لأن الكمية كبيرة فحسب، بل لأن المنشورات  
الصادرة تحتاج إلى شرح للموضوعات والمناقشات التي تتطوى على  
جانب كبير من المراجع. وسوف أشير هنا إلى قائمة من الكتب التي  
صدرت خلال السنوات العشر أو الخمس عشرة سنة الأخيرة، منها  
كتب حديثة، ومنها عدد لا حصر له من الكتب الكلاسيكية التي أعيد  
طبعها.

ولقد صدرت طبعة جديدة من مؤلف يورنتي Lorente (\*)

بعنوان

- Historia de la Inquisición española, Madrid (Hiparión)

---

(\*) Juan Antonio Lorente ، فن ومؤرخ إيباني ، لين علم محكمة التفتيش. (المرجع)

- تاريخ محكمة Losantos التفتيش الإسبانية. وكتب مقدمة  
هذا الكتاب لوسانتوس Losantos وصدر أيضا :

- H. CH. Lea, Los moriscos españoles y la inquisición en  
Alicante (1990)- con estudio preliminar de Rafael Benítez Sánchez  
Blanco.

- الموريسكيون الإسبان ومحكمة التفتيش في لقنت (البيكانتى)  
وكتب Benite Sanches Blanco مقدمة تمهيدية لهذا الكتاب.

- وأعادت سلسلة Archivom التي تصدرها إدارة النشر بجامعة  
غرناطة أعمالا مهمة طبع منها:

- Hortado de Mendoza, La Guerra de Alpujarras.

- حرب البشرات

- Hurtado de Mendoza y Gines Pérez de Hita, La Guerra  
de los moriscos.

- حرب الموريسكيين.

- Lognás, Vida religiosa de los moriscos.

- حياة الموريسكيين الدينية.

- Boronot Barrachina, Los moriscos españoles y su expulsión.

- الموريسكيون الإسبان وطردهم.

- Godoy, Historia crítica de los falsos cronicones.

- تاريخ نقدي للأخبار الزائفة.

- Gallego y Borin y Gamir Sandobal, los moriscos del reino de Granada segun el sínodos de Guadix.

- موريسكيو مملكة غرناطة على ضوء مجمع وادى أش الكنسى.

- Marmol, Rebelión y Castigo de los moriscos.

- ثورة الموريسكيين ومعاقبتهم.

- Carrasco Urgoite, el moro de Granada en la literatura.

- مسلم غرناطة فى الآداب الأوروبية(\*) .

كانت الكتب التى تحدثت عن الموريسكيين وفيرة، فلم تخل فترة تاريخية منذ عملية الطرد التى حدثت ١٦١٠-١٦١٤ دون أن

---

(\*) صدرت الترجمة العربية للكتاب، ترجمة شيرين محمود الرفاعى، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٥. (المراجع)

تولى اهتماماً للقضية الموريسكية. إلا أن السنوات الأخيرة شهدت طفرة حقيقية في الدراسات الموريسكية، ويتضح الاهتمام والعناية بهذه القضية في كمية المؤلفات "الكلاسيكية" التي أعيد طبعها، وفي عدد الدورات، والمؤتمرات، والحلقات الدراسية، والمحاضرات، التي تناولتها من مختلف الزوايا، وما دار حولها من أساطير. وقد قامت كل من فالنسيا وغرناطة بجهود تتعلق بالنشر سواء بالنسبة للمؤلفات الضرورية أو إصدار الطباعات المكررة أو بالنسبة لنشر المقالات في المجالات الخاصة بالجامعات. وتخصص جامعة أليكانتي Alicante مجلتها شرق الأندلس *Sharq al-Ándalus* للدراسات التي تتناول المدجنين والموريسكيين، وينظم مركز سيرمدى CEROMDI بتونس، والذي يتولى إدارته الأستاذ عبد الجليل التميمي مؤتمرات دورية، ويقوم المركز بنشر مضابط هذه المؤتمرات<sup>(\*)</sup>. هذا وتقوم أيضاً مجلة كرونিকা نوفا *Crónica Nova* التي تصدرها جامعة غرناطة بنشر العديد من المقالات الخاصة بالموريسكيين. وقد خرجت إلى الضوء أيضاً وثائق جديدة، وهي محلية بصفة عامة، بل ووثائق عربية، ومصادر أدبية، منها الأدب الألفمبادو *Aljamiada* (كتابة إسبانية

---

(\*) تحول مركز الدراسات الموريسكية والمتشعبة والبحوث والوثائق إلى مؤسسة التسمى للبحث العلمي ولا يزال يقوم بدوره في تنظيم المؤتمرات عن الموريسكيين ونشر أعمال هذه المؤتمرات. (المراجع)

بحروف عربية)، صدرت في السنوات الأخيرة. ولا يتسع المجال هنا لتناول جميع هذه الإصدارات، بل يتعذر مجرد سرد عناوين المؤلفات. وسوف أبدأ في عمل تصنيف إرشادي حول الاتجاهات والاهتمامات التي تكور حولها قوائم الكتب الصادرة حديثاً والتي نتناول قضية الموريسكيين.

إن وجود أقليات إسلامية جديدة في أوروبا، مع وجود حركة هجرة مغربية تتصاعد يوماً بعد يوم في إسبانيا، ليسا بمنأى عن هذه الطفرة المتمثلة في الاهتمام بالموريسكيين. ويتبين من بعض المشكلات في مجتمع جديد، قد يضم بين جنباته عدداً من التجمعات الإسلامية، ربما تجعل منه مجتمعاً متعدداً بطريقة أو بأخرى، حتى وإن كان هذا رغماً عنه. يتضح ذلك في القلق الذي نجده في كثير من الدراسات وفي الأسلوب الجدلي الذي كتبت به هذه الدراسات. ذلك لأن إشكالية الموريسكيين ما زالت بعيدة عن أن تهدأ. ويكفي أنها قد بدت مطروحة في إطار عبارات جديدة، لا تقتصر على الدفاع عن قرار الطرد أو إدانته فحسب، كما كان الحال منذ قرن من الزمان (وإن كانت تتعرض أحياناً إلى أنه كان يمكن تجنب هذا القرار أو عدم تجنبه) بل ركزت بصفة خاصة على السمات الإسلامية لهذه الجماعة، أو على إمكانية اندماجها، أو على الطرق التي طرح في إطارها موضوع الاندماج أو الرفض.

كان كتاب ماركيث بيلتوييا Villanueva Marquéz الذي صدر عام ١٩٩١، نقطة انطلاق نحو إجراء شكل جديد من النقاش. وينحصر موضوع هذا الكتاب فيما يلي : أن عملية التأريخ قد وقعت في ثلاثة أخطاء عندما زعمت أن هناك خرافات ثلاثة : خرافة الإجماع على كراهية الإسبان للطائفة الموريسكية وخرافة الموريسكي الرافض للانتماء، ثم الادعاء بالمصالح صفة التآمر الدائم بالموريسكيين. ويقول ماركيث أن هذا يرجع إلى أن المؤرخين استقوا المعلومات من مصادر رسمية "مسمومة"، وأغفلوا أصول الأدب، والذي تتعلق من خلاله الأصول المنشقة، إضافة إلى تيار فكري مناهض. ويدعو ماركيث إلى قراءة جديدة لتلك المصادر الأدبية تستخلص منها معان جديدة. وتسير في هذا الخط نفسه أجمل الدراسات الأدبية التي أجراها سوليداد كاراسكو أورغويتي S. Carrasco Urgoite (١٩٨٩) (\*) .

كتب ألبارو غالميس Álvaro Galmés (١٩٩٣) بدوره كتاباً يخالف مؤلف ماركيث، يرد فيه عليه. فهو يرى أن طائفة الموريسكيين مجتمع غير قابل "للتكيف"، بدليل أنها احتفظت بهويتها

---

(\*) صدرت عن المجلس الأعلى للثقافة ترجمتان لكتابين لهذه الباحثة المتميزة : "مسلم غرناطة في الأدب الأوروبية"، ترجمة شرين محمود الرفاعي، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن. و"السلام دوناً وصديقا"، ترجمة عبد الله صالح، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن. (المراجع)

رغم كل العقبات. ويرى غالميس Galmés ، أن الموريسكيين كتلة صماء ليس فيها فروج. وأن الطرد كان أمراً محتوماً. وهو يركز أيضاً على مصادر أدبية، هي الأندلسيون.

يرى ماركيث في الأقليات عنصراً من العناصر المكونة لمجتمع إسباني متسامح ومتعدد الثقافات يصير هو إليه. إنه يقول - دون أن يصل إلى إقناعنا في رأيه - إن هذا المجتمع المثالي قد وجد بالفعل. يقول أيضاً إن مجتمع الأغلبية لم يكن متجانساً ولم يكن هناك إجماع على كراهية الأقليات. (لما) غالميس يرى أن الموريسكيين كانوا يمثلون مجتمعاً متمسكاً بالإسلام متمسكاً تاماً ويقول برغبة الموريسكيين في احتفاظهم بهويتهم. يتحدث ماركيث ببانوييا عن طمس الهوية الثقافية للأقليات ويؤكد أن الطرد كان يمكن تجنبه على أساس أن إسبانيا كان فيها من الرجال والعزم ما يسمح لها بتجنب الطرد.

ويؤكد بيرثيال Perceval (١٩٩٧) بدوره الإجماع على الكراهية وعلى أن الإنسان الموريسكي فريد من نوعه، وأنه كما تصفه النصوص الأدبية نموذج نمطي واحد اتصف بكل الخصائص السلبية، بما يثير القفز والاشمئزاز، بل ويتصف بالشيطانية. وركز فانشول Fanjul أيضاً على الصورة الشعبية، من خلال الفولكلور والأمثال والأعياد الشعبية، التي تزخر بالكراهية والرفض. ولقد كان للحكايات التي رواها الأسرى الذين اختطفوا إلى شمال إفريقيا، وما لا قوة

هناك من معاملة وحشية، دور كبير في تجسيد هذه الصورة السلبية (فانخول ٢٠٠٢)، ويقترح فانخول رسم صورة مخالفة (على خلاف الصورة التي رسمها ماركيث)، وهي صورة هزلية وكاريكاتورية أيضاً، ولكن ذات دلالة سلبية دافعاً، وذلك للرد على خرافة التعايش والتكامل<sup>(\*)</sup>.

الاستخدام غير المناسب للمشوه لتعبيرات معاصرة وقديمة تاريخياً، نشهده واضحاً جلياً عند رودريغيث دي ثاباس Rodriguez de Zayas (١٩٩٢)، والذي سجل نحو ثلاثمائة صفحة مقدمة لمجموعة غير مسبقة من الوثائق، بكل أسف، مترجمة إلى الفرنسية ترجمة سيئة. ولعل ما يسعى ثاباس لإثباته يتمثل في أن قرار الطرد هو بمثابة السابقة الأولى في تاريخ العنصرية والتطهير العرقي. وبالنسبة للموريسكيين يصر على طرح يوازي الطرح الذي يؤكد عليه بنيامين نتقياهو بالنسبة لليهود المتصرين، وهناك احتمال كبير أنه تأثر بذلك الطرح، ذلك لأن كتاب نتقياهو أثار حملة جذلية كبيرة، كما لاقى تغطية إعلامية تناولتها أجهزة الإعلام (خاصة بعد ترجمة كتابه "جذور محكمة التفتيش" إلى الإسبانية - مدريد ١٩٩٩). لقد أكد برنارد فنسنت B. Vincet أنه لم تكن هناك أي سياسة قائمة على

---

(\*) يرى هذا المؤلف أن الأثر العربي الإسلامي في غرناطة مجرد أسطورة، لأن المسلمين لم يجهروا على مفكرة غرناطة بعد ثورة البشرا، وقرى أن كتاب خوليو كلرو وباروخا (مسلمو غرناطة بعد عام ١٤٩٢ ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة) يتحتمن رداً شاملاً ونحضا لهذه المزاعم. (المراجع)



مبادئ عنصرية، على الإطلاق : فالقضية بالنسبة له كانت ذات طابع ديني فقط.

هناك سمة مشتركة بين كل من ماركيث Marquéz ، وكاراسكو أورغويتي Carrasco Urgoite ، وغالميس Gálmés ، وفانخول Fanjul ، وبيرثيال Perceval وهي أنهم (على الرغم من اختلاف تفسيراتهم ) يستخدمون المصادر الأدبية قاعدة أو أساسا لدراساتهم، ويتحدثون عن الموريسكي بوصفه فردا، وكيانا. إن غالميس، وماركيث، وبيرثيال إنما هم مؤرخون للأدب، وإن السياق الذي يطرحون فيه الإشكالية، أو تحديد خصائص تلك الجماعة به قصور في رأى كثير من المؤرخين، إما بسبب الإيجاز الشديد، أو بسبب التعرض للجوهر دون الخوض في التفاصيل.

وأما المؤرخون (فستنت Vincent ، وبنيتس Benites ، وغالان Galan ، وغارثيا بدران Garcia Pedraza ، وباريوس Barrios ، وأغيليرا Aguilera إلخ) الذين اكتبوا أساسا على دراسات محلية، وعلى جماعات معينة، وعلى الجوانب الاقتصادية والاجتماعية، بررون المشكلة من زاوية أكثر دقة وتخصصية، حيث يتناولون مختلف الجماعات الموريسكية وفق خصائص جغرافية مختلفة، وحسب التسلسل التاريخي، فضلا عن الجانب الاقتصادي، كما اتبعوا النهج نفسه بالنسبة لمجتمع الأغلبية، بمختلف درجاته (الكنيسة، والنسباء، ومحكمة التفتيش، والتاج، والشعب بصفة عامة) وما اتخذته هذه

الطبقات من سياسات وإستراتيجيات متعاقبة (محاولات التصير خلال الثلث الأول من القرن السادس عشر) أو تأثير عوامل أخرى مثل الصراع مع الأتراك، أو استفحال عمليات القرصنة، أو هذنة الاثنى عشر علما مع هولندا. يبدو أن المؤرخين بصفة عامة متفقون على أنه كانت هناك درجات مختلفة للاندماج، كما كانت هناك أيضا درجات مختلفة بالنسبة لقبول المجتمع المسيحي أو رفضه، خلال مراحل مختلفة. فالأمر يتعلق إذن باختلافات منهجية ارتكزت على مصادر مختلفة، ولكن ينبغي أن ننبه إلى هذه الاختلافات، لأن قراءة كتب المؤرخين المحترفين، بما تتضمنه من وثائق أرشيفية، وبما تتميز به من أساليب تحليلية، وعرض للقضايا بشكل يتجاوز الخطوط العريضة، عادة ما تكون ممتعة وصعبة على القارئ غير المتخصص، بخلاف الكتب القائمة على نصوص أدبية. لا أقصد بهذا أن المؤرخين ينقصهم الاتجاه الفكري أو الإيديولوجي (الأمر بعيد عن ذلك) بل إن المصادر شديدة التنوع، ومتعددة المصادر توضح مدى التذبذب والتغيرات التي تطرأ على الأوضاع المعقدة في حد ذاتها.

إن نقطة الالتقاء التي تلتقي فيها هاتان المجموعتان من الباحثين هي أن قضية بناء الهوية الإسبانية تكمن في خلفية كل منهما، وهي قضية بلغت درجة كبيرة من التطور في هذا القرن الذي شهد الوجود الموريسكي. إن سمات هوية الإسبان خلال القرون الأولى من العصر الحديث تجري صياغتها على أساس مناهضة مسلمي شمال إفريقيا، والسكان الأصليين في أمريكا. وفي هذا المجال

تتبين ضرورة دراسة مدى التشدد في المواقف المسيحية إزاء الأقليات المسلمة واليهودية التي شهدتها القرن الخامس عشر، وخاصة في النصف الثاني منه، بدءًا من النشاط التشريعي لكانتالينا دي لانكستر وحتى حكم مدينة Sentencia de Medina أو دراسة الكتب الخاصة بالجدل الديني، أو المواعظ, 2002 (Echeverría 1991) (Espalza (1999), Bernabé (1995).

إذا كانت كتب المؤرخين التي تناولت قضية الموريسكيين أقل إثارة للجدل في هذا العقد الأخير، فربما يرجع السبب إلى أنهم قد تخلوا عن الخوض في تلك الجوانب التي أدت إلى أوضاع طففت على الساحة، أقصد هنا محكمة التفتيش بصفة خاصة. فلن قضية الموريسكيين، وموضوع محاكم التفتيش، قد تناولتها قائمة عريضة من الكتب، شهدت في عقد السبعينيات دفعة خاصة اعتبارًا من بعض المؤلفات منها :

Cardillac, L., Marisques et Chretien's un affrontment  
polémique : Paris, Klincksieck, 1971.

وقد ترجم هذا الكتاب إلى الإسبانية تحت عنوان :

Moriscos y Cristianos . Un enfrentamiento polémico,  
Madrid,

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب لم يتناول محاكم التفتيش  
تحديدًا، فإنه تناول نشاطها بطريقة جديدة، وذلك لكي يصنع تاريخًا  
ثقافيًا واجتماعيًا. وفي السياق نفسه كتبت غارثيا أرينال، كتابًا بعنوان  
**Garcia Arenal Inquisición y Moriscos : los porcesos del tribunal  
de cuenca, Madrid, Siglo XXI, 1978- Reed 1983**

- محكمة التفتيش والموريسكيون : قضايا محكمة كوينكا (\*) .

شهد عقد السبعينيات دفعة جديدة في إسبانيا بالنسبة للدراسات  
التي أجريت حول محاكم التفتيش، كما شهد أيضًا اتجاهًا جديدًا في  
معالجتها، ومن هذه الدراسات دراسات أجريت حول ممارسات  
محكمة التفتيش تجاه الموريسكيين. ومن هذه الدراسات الكتاب  
الجماعي لـ :

**Cardaillac, L. y Vincent, B. (eds), Les morisque el  
l'inquisition, Paris, 1991.**

ويشتمل أدب العجبة Aljamiado على مؤلف جيد التركيب هو  
**Wiegers, G.A, Islamic Literature in Spanish and Aljamiada : Yca**

---

(\*) صدرت الترجمة العربية لهذا الكتاب، ترجمة خالد محمد عجلان، مراجعة وتقديم جمال عبد  
الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٤. (المراجع)

of Segovia (d. 1450), his antecedentes and sucessoors, Leiden, E.J. Brill, 1994. الألب الإسلامى بالإسبانية والأخمىاءة.

كذلك أصدرت سلسلة CLEAM عن دار Gredos للنشر واللى يتولى إدارتها أ. غالميس دى فوينتس Galmes de Fuentes ، العديء من الأءاء الخاصة بطبع وءراسة المؤلفات باللغة الأخمىاءة.

٥- المورىسكوى فى شبه الجزىرة

Braga, Isabel Drumond, Mouriscos e Cristaos no Portugal quinhentista. Duas culturas e duas concepcoes religiosas en Choque, Lisbon, 1999.

المورىسكوى والمسبءوى فى البرتغال فى القرن الخامس عشر ثقافتان، ومفهومان ءىنىان فى صءام.

- Barrios Aguilera, M. Granada Morisca, La convivencia negada, Granada, 2002.

- ءرناطة المورىسكىة - القماىش المرفوض تألىف م. ءارىوس

أءىلرا

- Benítez Sánchez - Blanco, R., Heroicas decisiones. La monarquía católica y los moriscos Valencianos. Valencia, 2001.

- قرارات بطولية. الملكية الكاثوليكية، والموريسكيون  
الفالانسيون تأليف بنيث سانشيث - بلانكور.

- Bernabé Pons, F. El evangelio de San Bernabé, un  
evangelio islámico español- Alicante, 1995.

- إنجيل برنابا. إنجيل إسلامي إسباني - برنابا بونس.

- Bernabé Pons, L.F. El texto morisco del Evangelic de San  
Bernabé. Granada, 1998 Cardaillac, C. (ed).

- النص الموريسكي لإنجيل برنابا

- Les morisques et l'Inquisition - Paris 1990.

- الموريسكيون ومحكمة التفتيش.

- Espalza, Mikel de: Jesús entre judíos y cristianos, y  
musulmanes hispanos (siglos VI-XVII) Granada Universidad -  
1999.

- المسيح بين اليهود والمسيحيين والمسلمين الإسبان - إصدار  
جامعة غرناطة ١٩٩٩.

- Echervarría, Ana. The Fortress of Faith. The attitude  
towards Muslims in fifteenth - century Spain.

- حصن الإيمان . الموقف من المسلمين في القرن الخامس عشر - إسبانيا

- Catalina de Lancaster – Madrid 2002.

- كاترين لانكستر – مدريد ٢٠٠٢.

- Galmés de Fuentes, Alvaro . Los moriscos (Desde su orrilla) Madrid 1993.

- الموريسكيون (من وجهة نظرهم)

- Fonjul, S., Al Ándalus contra España. La forja del mito. Madrid 2002.

- الأندلس ضد إسبانيا . خرافة ملفقة . مدريد ٢٠٠٢.

- Marqués Villanueva, Francisco . El problema morisco (desde otras laderas) – Madrid 1991.

- القضية الموريسكية (من وجهة نظر أخرى) – مدريد ١٩٩١.

- Perceval, José María. Todos son unos- Arquetipos, xonofabía y racismo. La imagen del morisco en la Monarquía española durante los siglos XVI y XVII. Almería, 1997.

- نماذج أصلية، كراهية الأجانب، وعنصرية صورة  
الموريسكى فى المملكة الإسبانية خلال القرنين ١٦ و ١٧.

- Zayas, Rodrigo de , Le morisques, et le racism d'Etat  
Roris, 1992.

- للموريسكيون وعنصرية الدولة.

٦- الموريسكيون بعد الطرد.

- Bernabé Pons, L. El cántico spiritual del morisco hispano  
tuncino taylibi, Zaragoza, 1988.

- الإنشاد الروحى للموريسكى التونسى الطيبلى.

- Espalza M. de y Petit, R., Recueil d'etudes sur les  
morisques anadalous en Tunisie, Madrid 1973.

- سلسلة دراسات عن الموريسكيين الأندلسيين فى تونس .

- كتاب ناصر الدين على القوم الكافرين لأحمد بن قاسم  
الحجرى - دراسة نقدية مترجمة إلى الإنجليزية.

- Latham, D. From Muslim spain la Barbary- Londres,  
1986.



من إسبانيا المسلمة إلى البربر.

- الأندلسيون ومجرتهم إلى المغرب خلال القرنين ١٦ و ١٧

محمد رزوق - الدار البيضاء (١٩٩٩).



## قائمة المراجع

- Ashtur, E. (1979) The Jews of Muslem Spain, dos vol. The Jewish Publication Society of América, Florida.

يهود إسبانيا المسلمة - جزآن.

- Baer Y. (1981) Historia de Los judíos en la España cristiana. Altalesna- Madrid.

تاريخ اليهود في إسبانيا المسيحية - مترجم عن العبرية.

- Barceló, C. (1984) Minorías Islámicas en el Pais Valenciano- Universidad, Valencia.

الأقليات الإسلامية في مملكة فالنسيا.

- Barrios Aguileral M. (2002) Granada Morisca, la convivencia negada. Editorial comares- Granada.

غرناطة الموريسكية والتعايش المرفوض.

- Benités Sanchez. Blanco, R. (2001) Heroicas decisiones. La Monarquía Católica y los moriscos Valencianos Inistitució Alfons el Magnanim- Valencia.

- قرارات بطواية. المملكة الكاثوليكية والموريسكيون  
الفالانسيون.

- Bernabé Pons. L. (1995), EL evangelio de San Bernabé,  
Un evangelio islámico español, Universidad Alicante .

إنجيل برنابا، إنجيل إسلامي إسباني.

- Bernabé Pons. L. (1998) El Cántico espiritual del morisco  
hispanotunecino, Tailibi, Institución Fernando el Católico-  
Zaragoza.

النشيد الروحي، للموريسكي الإسباني التونسي - الطيبيلي.

- Boswell (1977), The Royal treasure : Muslim communities  
Under the crown of Aragon in the Fourteenth century, Yale  
University Press New Haven y Londres.

- Braga, Isabel Drumond (1999), Moriscos e cristãos no  
Portugal quinhentista. Duas culturas e Duas concepções  
religiosas en Choque, Hugin, Lisboa.

الموريسكيون والمسيحيون في البرتغال خلال القرن الخامس  
عشر وصدام بين ثقافتين ومفهومين دينيين.

- Burns, I. (1967). The Gusader kingdom of Valencia. Reconstrucción of a Thirteenth century Frontier, University Press. Cambridge. Valencia, Del Cenio al Segura. 1982.

### مملكة فالنسيا المسيحية.

- Burns, (1975) Medieval Colonialism : Pastcrusade Explotación of Islamic Valencia, University Press. Princeton.

### استعمار العصور الوسطى.

- Burns, (1984) Muslim, Christians and Jews ls the Crusader kingdom of Valencia, University Press – Cambridge.

### المسلمون، والمسيحيون، واليهود فى مملكة فالنسيا المسيحية.

- Cardaillac L. (1971) Morisques et Cheritiens. Un affrontement polémique. Klincksieck, Paris.

موريسكيون، ومسيحيون، مواجهة جدلية - ترجم إلى الإسبانية(\*).

- Cardaillac, L. (dir) (1990), Les Moriques et L'Inquisition. Publisud.

---

(\*) توجد ترجمة جزئية لهذا الكتاب إلى اللغة العربية. انظر : لسوى كارداليك "الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون : المجاهدة الجدلية تعريب د. عبد الجليل التميمي، زغوان، تونس ، ١٩٨٩ . (المراجع)

الموريكيون ، ومحكمة التفتيش.

**Domínguez Ortiz, A., y Vincent, B. (1981) Historia de los moriscos. Vida y tragedia de una minoría. Revista de Occidente. Madrid. Varias ediciones, la última, Madrid, Alianza Ed. 1977.**

تاريخ الموريكيين، حياة ومأساة أكليّة.

- Echevarría, Ana (1999), The fortress of faith . The attitude towards muslims in fifteenth century spain – Leiden – E.J. Brill.

حصن الإيمان.

- Espalza M. De y Pelit R. (1973) Recueil d'études sur los morisques andalous en Tunisie, Instituto Hispano arabe de cultura – Madrid.

دراسة حول الموريكيين الأندلسيين في تونس.

- Espalza M.D. (1992) Los moriscos antes y después de la expulsión, Maphre, Madrid.

الموريكيون في إسبانيا وفي المنفى.

- Fernández y Gonzales M. (1995) Estado social y político de los mudéjares de castilla, Hiperion Madrid.

أوضاع المدجنين الاجتماعية والسياسية في قشتالة.

- Ferrer y Mallol, M. T. (1990) Els sarraïns de la corona catalana- Aragonesa en el segle XIV CSIC- Barcelona .

المسلمون التابعون للتاج القطالوني – الأراغوني في القرن الرابع عشر.

- Ferrer Mallol, M.T. (1988) Les aljames del Reino de la governació d' oriole XIV, CSIC- Barcelona.

الجماعات الإسلامية في مملكة أوريو لا في القرن الرابع عشر.

- Galan Sánchez, A. (1991), Los mudéjares del Reino de Granada, Servicio de Publicaciones de la Universidad, Granada.

المدجنون في مملكة غرناطة.

- Galmés de Fuentes, Alvaro (1993) Los moriscos (desde su misma orilla) Institute egipcio de estudios islámicos – Madrid

الموريسكيون من وجهة نظرهم.

- García Arenal, M. Y Leray B. (1981), Moros y Judíos en Navarra en la Baja Edad Media – Hiparión, Madrid.

المسلمون واليهود في مملكة نابارًا في العصور الوسطى.

- García Arenal M. y Wiegers, GA (1991) Entre el Islam y occidente : vida de Samuel Palache, Judío de Fez Siglo XXI?

بين الإسلام والغرب : حياة صمويل بايانشي<sup>(\*)</sup> يهودى من  
نفس القرن ٢١، ص ١٥٥<sup>(\*\*)</sup>.

- Clic Th. (1979), Islamic and cristian spain en the early Midlle ages, University Press, Princeton. Traducido al español.

إسبانيا الإسلامية والمسيحية فى العصور الوسطى المتقدمة.  
ترجم إلى الإسبانية

- Guichard, P. (1999-91) Les Muslímans de Jalence et le Reconquete (XII-XIII Siecles) Institut Francais de Damas, Damasco, 2 vol .

مسلمو فالنسيا وحرب الاسترداد.

- Harvey, L.P. (1990) Islamic Spain- 1250-1500 The University of Chicago Press, Chicago, Londres.

إسبانيا الإسلامية ١٢٥٠-١٥٠٠.

---

(\*) هذا الكتاب ترجم إلى الإنجليزية تحت عنوان A Man of three worlds.

(\*\*) ترجم هذا للكتاب إلى العربية . انظر "بين الإسلام والغرب" تأليف غارثيا أرينال وجيرارد وبنفس ترجمة معدوح البستوى، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥. (المراجع)



- Hinojosa Montalvo J. (2002) Los mudéjare, La voz del Islam en le España cristiana (Centro de estudios Mudéjares, Teruel, 2 vol. El segundo dedicado a documentos.

المدجنون، صوت الإسلام في إسبانيا المسيحية، جزآن. الجزء الثاني خاص بالوثائق.

- Ladero Quesada, M.A. (1969) Los Mudéjares de Castilla en tiempos de Isabel la Católica, Instituto Isabel la Católica, Valladolid, que puede leerse conjuntamente con el libro del mismo autor (1978), Granada, Historia de un País islámico, Madrid, de la que existen reediciones posteriores. O también de Ladera (1988) Granada después de la conquista repobladores y mudéjares, Universidad Granada.

مدجنو قشتالة في عصر إيسابيل الكاثوليكية، ويمكن قراءة هذا الكتاب مع كتاب للمؤلف نفسه بعنوان: غرناطة، تاريخ دولة إسلامية. أو كتاب: "غرناطة بعد الغزو. للمستوطنون الجدد والمدجنون". للكتاب نفسه أيضًا.

- Latham, D. (1986) From Muslim Spain to Barbary . Variorum- Reprintst.

- من إسبانيا المسلمة إلى البربرية.

- Manzano Moreno, E. (1991) La frontera de al-Ándalus en época de los Omeyas, CSIC, Madrid.

حدود الأندلس في عصر الأمويين.

- Marqués Villanueva F. (1991) El problema morisco (desde otras Laderas) Ediciones Libertarias, Madrid.

المشكلة للموريسكية (من وجهة نظر أخرى).

- Meyerson, M. (1991) The Muslims of Valencia en the age of Fernando and Isabel : Between Coexistence and Crusade, Barkeley, trad al valenciano, Institute Alfonso el Magnanim, Valencia, 1999.

مسلمو فالنسيا في عصر فرناندو وإسماعيل، بين التعايش والحرب الصليبية، ترجم إلى اللغة الفالانسية.

- Mollet- Gérard, D. (1984) Cretinas mozarabes el cultura islamique dan's l'Espagne de VII-IX Siècles. Etudes Augurtiniennes, Paris.

المستعربون المسيحيون والثقافة الإسلامية في إسبانيا من القرن السابع إلى القرن التاسع.

- Molénal, J.P. (1977) Campagnes et monts de Tolède du XII au XVème siècle, Casa de Velásquez Madrid.

ريف طليطلة وجبالها من القرن الثاني عشر إلى القرن الخامس عشر.

- Nirenberg, D. (1996) Communities of Violence Persecution of Minorities in the Middle Ages, University Press, Princeton; Trad. al castellane, Peninsula, Barcelona, 2001, al francés. Puf. Paris 2001.

مجتمعات العنف. اضطهاد الأقليات في العصور الوسطى.  
ترجم إلى الإسبانية، والفرنسية

- Viguera, M.J. (1981) Aragón Musulmán, Zaragoza, reed. Mira D.L., Zaragoza.

أراغون المسلمة.

- W.AA (2000) El Marruecos Andalusi, Museos Sin Frontera. Electa. Madrid . Trad Frances EDDIF, Casablanca 2000.

المغرب الأندلسي، متاحف بلا حدود . ترجم إلى الفرنسية.

- W.AA. (2000), El arte Mudéjar. La estética musulmana en el arte cristiano. Muscos Sin Fronteras. Electa- Madrid- Trad, Frances . EDIFF

الدار البيضاء للجمال الإسلامي في فن المدجنين - ترجم إلى الفرنسية.

- Wiegers, G.A. (1994) Islamic Littrature in Spanish and aljamiado : Yça of segoria (d.1450) he's antecedentes and cuccessorsl.

الأدب الإسلامي بالإسبانية والأخميادية.

المؤلفة في سطور

مرثيديس غارثيا أرينال

- أستاذة بالمجلس الأعلى للبحث العلمي في إسبانيا ، ورئيسة  
قسم اللغة العربية به لعدة دورات

- من أبرز المتخصصين في الدراسات الموريسكية

- لها العديد من الكتب والمقالات المنشورة في إسبانيا وغيرها  
حول العلاقة بين المغرب وإسبانيا

- أشرفت على العديد من الرسائل الجامعية المقدمة إلى جامعة  
مدريد المركزية .

المترجم فى سطور

محمود فكرى عبد السميع

- من مواليد منية النصر - دقهلية.

- ليسانس لغة إسبانية - كلية الألسن ١٩٦١ .

- مدير إدارة البرنامج الإشباني بالبرامج الموجهة بإذاعة  
جمهورية مصر العربية (سابقاً). عمل مترجماً بالمكتب التجارى فى  
السفارة المصرية بمدريد، ومركز الترجمة والمعلومات بالملكة  
العربية السعودية .

- ترجم إلى العربية عددًا من القصص والمسرحيات من  
الأدب الإشباني وآداب أمريكا اللاتينية ، نشرت بالصحف والدوريات  
المصرية والعربية .

المراجع فى سطور

جمال أحمد عبد الرحمن

- من مواليد ١٩٥٦ بقرية بنى مجد (أسيوط).

- حاصل على درجة الإجازة العليا (الليسانس) فى اللغة الإسبانية بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف (١٩٧٩) ، كلية اللغات والترجمة ، جامعة الأزهر .

- الدراسات التمهيدية للدكتوراه فى جامعتى سلمنكا ومريد .

- حاصل على درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف فى جامعة مريد المركزية (١٩٨٩).

- فى عام ٢٠٠١ رقى إلى درجة أستاذ بقسم اللغة الإسبانية بكلية اللغات والترجمة ، جامعة الأزهر .

- له العديد من الكتب المترجمة والمقالات المنشورة فى مصر والخارج حول موضوعات مختلفة من الأدب الإشباني والعلاقة بين الإسلام والثقافة الإشبانية.

التصحيح اللغوي : محمد إسماعيل

الإشراف الفني : حسن كامل